

Amyly

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

روايات العرب

محمد البساطي



أوراق العائلة

دار الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة

مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

سكرتير التحرير

مؤمن حسين

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس
- الكويت ١٢٥٠ فلساً - السعودية ١٢ ريالاً - البحرين
١.٢ دينار - قطر ١٢ ريالاً - الإمارات ١٢ درهماً - سلطنة
عمان ١.٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهماً -
فلسطين ٣.٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات .

عنوان البريد الإلكتروني :

darhilal@idsc.gov.eg

الاصدار الأول

يناير ١٩٤٩

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي
(١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل
ج. م. ع. تسدد مقدما نقدا أو
بحوالة بريدية غير حكومية -
البلاد العربية ٣٥ دولارا -
أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا
٥٠ دولارا - باقي دول العالم
٦٠ دولارا

القيمة تسدد مقدما بشيك
مصرفي لأمر مؤسسة دار
الهلال - ويرجى عدم إرسال
عملات نقدية بالبريد

للاشتراك في الكويت:
السيد عبدالعال بسيوني زغلول
الصفحة ص. ب. ٢١٨٣٣

(13079) ت: ٤٧٤١١٦٤

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع

مصد عز العرب بك (المبتديان

سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠

(٧ خطوط) المكاتبات: ص.

ب: ٦١ العنتبة - القاهرة -

الرقم البريدي ١١٥١١ -

تلغرافيا المصور - القاهرة ج.

م.ع.

تلكس :

Telex 92703 hilal u n

فاكس :

FAX 3625469

أوراق العائلة

بقلم

محمد البساطي

دار الهلال

Amby

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

الكورس :

يا لك من مسكين

كيف وقعت مصائبك ؟

يوربيدس

الغلاف للفنان :
محمد حجي

كنا نعيش فى بيت واحد . جدى الأكبر وجدى لأبى وأنا وأخى
وأبى وأمى .

حجرة الجد الكبير كامل فى نهاية المر بمؤخرة البيت بعيدا
عن ضجة الحركة اليومية بالحوش، جنبها حجرة الجد شاكرا .
أمامهما مرحاض يخصصهما، المر قصير معتم، كان ضوء النهار الآتى
من بئر السلم يخفف قليلا من ظلمته، ونستطيع فى قعدتنا بالحوش أن
نرى بابى الحجرتين المواريين، وتلمح من يخرج منهما إلى المرحاض
تسبقه سعة خفيفة، حين يكون الجد الكبير هو الخارج تظل عيوننا
ترقب المر حتى يعود إلى حجرته، مشيته الحذرة مستندا بيده على
الجدار تجعلنا نخشى عليه، كان عجوزا جدا، شديد النحول لا يتحمل
الجلباب على جسده يتركه دائما مطويا فوق المخذة مكتفيا بالسروال
الطويل وقائلا بكمين . نادرا ما يغادر حجرته، المرات القليلة التى
شاركنا الطعام كانت فى المواسم، يتصدر الطبلية، وتعلق أمى فوطة
على صدره، وتضع أمامه سلطانية الشورية بالشعرية واللحم
مهروس بها ، يده المرتعشة ترفع الملعقة، يتمهل بها ليوقف اهتزازها
قبل أن تصل إلى فمه، رغم ذلك تتساقط الشورية من الملعقة وتبلىه ،
نختلس النظر إليه بعد أن حذرنا أبى ونكتم ضحكاتنا .

أُمى المرأة الوحيدة بالبيت، تساعدها نسوة من الجيران،
ترسل صينية الطعام مع واحدة منهن إلى الجد الكبير وإبريق الماء
والطشت ليغسل يديه أو يتوضأ . نتسلل إليه أنا وأخى الذى
يصغرنى ، كانت أُمى تنهاننا عن الذهاب إليه حتى لانتعبه، يتبته من
غفوته لدى دخولنا، يفتح فمه الأرد دون صوت مرحبا وعيناه
الصغيرتان الغائرتان وسط التجاعيد عالقتان بوجهينا، ويفسح لنا
مكانا بجواره على الفرشة .

حواديتة كثيرة، غريبة، لا تشبه ما نسمعه من الآخرين .
عفريت يخرج من النهر فى الليل يخطف البنات من فوق الشط، وقطط
تتحول إلى ذئب فى الليالى القمرية . حين يأتى إلى مغامرات
الحمارة العمياء ننفجر فى الضحك، ويضحك معنا مجفقا بيده ما يسيل
من عينيه ويأتى صوت أُمى مناديا، ولا تلتفت إليها وقد اندفعنا فى
الهرج . أحيانا يتوقف عن الحكى ويسألنا إن كنا نتذكر جدتنا
امراته ؟

ونقول إننا أخبرناه من قبل أننا لم نرها .

يرمقنا ساكنا ذابل العينين ويغمغم : لم تروها ؟

ونصيح به ليعود لحدوتة الحمارة العمياء .

لا يلتفت إلينا . حركة فمه وكأنما يلوك شيئا :

- لم تروها . هى التى حكّت مئات الحواديت . ما من حدوتة

إلا وكانت تعرفها . كل ما أحكيه لكم من حواديتها . امرأة بعشرة
نسوان، وإلا حلوتها . صدرها ما شاء الله يرضع حارة بكاملها .

وفخذاها الهائلتان . آه . تشطفهما آخر النهار . تقول ...

ويأتى صوت الجد شاكر من الحجرة المجاورة غاضبا :

- حا بيتدى يخرف .

يصمت الجد الكبير وأذنه الباب، يتساءل :

- بيكلم مين ؟

ونهبز أكتافنا ونظل فى سكوتنا، نخشى أن يشتبكا فى الكلام

كعادتهما فلا نسمع الحواديت، وقد تأتى أُمى على زعيقهما فننال بعض

اللطومات لأننا السبب .

يعود الجد الكبير لسؤالنا وفمه يرتعش :

- بيكلم مين ؟

ويرزعق الجد شاكر :

- ومين يكون غيرك ؟ لسانك الفالت .

ينحنى الجد الكبير فى قعدته، يهز رأسه مرة وأخرى :

- وتقولها ؟ طول عمرك نطع . حتى يوم موتها سحبيوك من

أمام حلة المحشى . لتراك . فإكر أننى نسيت ؟

أتسلل وأخى فى هدوء قبل أن يشتعل الشجار بينهما .

يفضى المئزر إلى حوش واسع حيث الفرن وقعدة النسوان
بالنهار مع أمى، على جانب الحوش حجرتان، واحدة للدواجن والأخرى
للخزين، أجولة أرز وقمح فوق بعضها، وقدور الجبن والسمن، كنت
وأخى نختبىء بينها عندما يبحثون عنا، وبالجانب الآخر من الحوش
باب ضخم صريره مرتفع، يسمونه باب الوسط، تغلقه أمى دائما، يؤدى
إلى المبنى الجديد _ البيت الثانى _ الذى أُلحقه أبى بالبيت القديم لدى
زواجه . له باب خارجى خاص به، ويتكون من أربع حجرات، اثنتان
للنوم ، وواحدة للضيوف، والرابعة للقعاد تستقبل فيها أمى زائراتها،
وثمة صالتان، واحدة كبيرة، فى جانب منها ترابيزة السفرة وملحقاتها،
وفى الجانب الآخر مقاعد فوتيه، والصالة كلها كانت مجهزة لاستقبال
ضيوف أبى الكثيرين، وكانت وحدها التى تضاء بالكلوبات، الصالة
الثانية صغيرة تتوسط الحجرات حيث نتناول طعامنا متحلقين حول
الطبلية، ويحلو لأبى أن يتمدد على الكنبه بها بعد الغذاء . الجدران
مدهونة بالزيت، والأرض مكسوة ببلاط ملون، وثمة حمام كبير يسعنى
وأخى لدى الاستحمام .

ظل البيت القديم على حاله . وعندما أراد أبى أن يجرى به بعض
التجديدات رفض الجد الكبير، كانت أرضه طينية وغير مستوية،

وجدرانه سميكة بها فجوات عديدة خلفتها المسامير الضخمة والحلقات الحديدية، ودرجات السلم المؤدى للسطح متاكلة، والسقف من عروق خشب اختفت تحت طبقة سميكة من الهباب الذى تلفظه عين القرن وكان يتدلى فيما يشبه الحبال القصيرة، وثمة قفص من الجريد معلق فى السقف تحفظ به أرغفة العيش وأوانى الطعام الذى يخشى عليه من الفئران والزواحف، يرفع القفص وينزل بحبل يثبت طرفه حول مسمار بالحائط .

البيت يشغى بالحركة طول النهار، وباب الخروج المطل على الحوش يظل مفتوحا على سعته .

فى الليل يهدأ كل شىء، ويخلو الحوش ويصمت، يبدو فى الظلمة موحشا وكئيبا، تشعل أمى مصباحا صغيرا تعلقه فى المر مقابل حجرتى الجدين، وتنقل إلى البيت الثانى وتعلق باب الوسط وراءها، لحظتها أحس وكان البيتين انفصلا عن بعضهما، وتتألق أضواء المصابيح الكبيرة داخل الصالة الصغيرة، وتفتح أبواب الحجرات، وتزاح الستائر عن النوافذ .

تأخذ أمى حماما وتلبس جلبابا خفيفا بدون أكمام، وتجهز العشاء لأبى الذى اقترب مجيئه .

عادة يخرج جدى شاكر بعد أذان العشاء، اسمع الباب الخارجى للبيت القديم يفتح ويغلق، وسعته حين يستقبل هواء الشارع، الجد الكبير لا صوت له وكأنما نغمس، وبعد ساعة زمن - وأكون لا أزال فى الصالة مع أخى، وأمى وأبى دخلا حجرتهما يتبادلان الكلام هناك - أسمع صوت حركة الجد الكبير فى الحوش، يذهب ويأتى،

وطرف عصاه يدق الجدران من حين لآخر، فى البداية أفرغنا الأمر، كنا نتخيله تحول إلى شمع راح يتجول فى أنحاء البيت، وربما يطير فى فضاء الحوش . بعدها نقلنا قعدتنا إلى جوار باب الوسط المغلق ننصت لحركته، كان يغمغم بكلام لا يصلنا واضحا، الصوت فقط، أنصاف كلمات، تشويه حدة أحيانا، وربما يلوح بعصاه لحظتها، كنت أسمع خبطا مكتوما وكأنه طرف العصا يضرب الجدار، ويصمت ، يطول صمته، ونظنه جلس فى مكان ما بالحوش، ومنتظر ، تأتينا تنهيدته العميقة، هو غير بعيد عنا، ثم يتأوه كعادته حين يهم بالوقوف مستندا إلى شىء ما . يعود إلى تجواله فى الحوش، صوت حركته كأنما دخل إحدى الحجرتين، لحظة وأخرى، دقائق طرف العصا على القدر، هى حجرة الخزين، وفى ليلة خمنا من الصوت انه يصعد إلى السطح، نتساءل بنظراتنا عما يفعله هناك، وجاغا وقع خطواته الخافت على سطح البيت القديم، وصرير الخشب الضعيف، هو سقف حجرة الدواجن الذى يصدر عنه هذا الصوت حتى لو مشى عليه أخى . أبى وأمى نائمان، باب حجرتهما مغلق، رفعت أخى ليفتح ترباس باب الوسط، ثم دفعناه ببطء لنكتم صريره، الحوش مظلم من ناحية الباب الخارجى، وضوء السماء الرمادى يتدفق إلى الطرف الآخر هلال منور السلم . نلبد بجوار باب الوسط ومنتظر، يطول انتظارنا، وخطواته على السطح تمضى من طرف إلى آخر، ثم نراه يهبط السلم فاردا طوله فى الضوء الناعم، يبدو لحظتها كأنه غير الجد الكبير الذى نعرفه، ويمضى إلى باب حجرتى الدواجن والخزين ويغلقهما، دائما يلمحنا منزويين بجوار الباب، ينحنى مداعبا خدودنا ثم يختفى فى المر

يشتد النقاش أحيانا بين الجدین، وتكون النسوة فى الحوش، تخفت ضجتهن، ويتحاشين النظر ناحية أمى التى تتوقف يداها عن العمل وترفع رأسها منصتة . تكتم النسوة الضحك و يخفين وجوههن فى الطرح، وعندما تقلت كلمات نابية من الجدین ينفجرون فى الضحك وتبتسم أمى وتهز رأسها، بعدها يتها مسن بأخبار جدى شاکر، ما سمعنه فى الحارة أو السوق . كن أكبر سنا من أمى، وعلاقتهن بالبيت تمتد إلى ما قبل زواجها عندما كان جدى شاکر شابا ويأتين لمساعدة الجدة زينب، حكين الكثير فى قعدتهن عن جدى أيام زمان وكن وقتها فى صدر شبابهن، منهن من تزوجت حديثا، ومنهن المقبلة على الزواج، ويد جدى لا تفرق بين واحدة وأخرى، يمدها إلى أجسادهن فى غفلة من الجدة، يده ثقيلة وتضغط، كن يصحن من الألم، وينهرنه فى غضب، والكلام الذى كان يهمس به لهن ويخجلن من ذكره، مرة فى مرة وامتدت أيديهن، يزحن يده فى عنف قبل أن تصل إليهن، ويدفعنه من ظهره بعيدا، هو الضخم يستسلم لدفعهن ضاحكا . فى وجود امرأته الست زينب يكون رزينا عاقلا، هن أيضا يقفن أو يقعدن متحفظات وكان شيئا لا يجرى فى الخفاء . وتعلق واحدة أثناء جلستهن فى الحوش :

- وكنا يا ست أم ياسر نستغرب زواجها منه . هي أيضا
من بيت كبير . ومعها شهادة . أظنها الابتدائية . ابتدائية زمان .
أخذتها لما كانت عايشة في بيت خالها بالمرکز أو مدينة آيه موش
فاكرة، والحاج شاكرا، يعطيه طولة العمر لا راح مدرسة ولا فك
بخط . نصيب .

- ومنين تعرف طبعه ؟

- صحيح . لم يظهر إلا بعد الزواج . وكلنا كنا في البيت قبل
زواجه . من تقول انه مد يده ناحيتها ؟

- صحيح . وكفاية نبش في أسرار الناس .

وتلح أمى ليعدن للكلام وقد أحست أن هناك ما يخفيه، ويؤكد
لها أنهم لا يخفين شيئا، وأنها تعرف كل ما يعرفه .

يفادرن وقت الظهر بعد أن ينهين الخبز والغسيل والكنس، ومع
إقتراب موعد الغداء تأتي أم سالم بصحبة ولديها . كانت أرملة، مات
زوجها بالسل من عامين، تساعد أمى في الطبخ وإعداد الطعام، وتقع
مع ولديها في ركن الحوش لتناول الغداء . بعدها تحمل صينية إلى
جدى الكبير، وتعود لتأخذ صينية الجد شاكرا وتظل في حجرته إلى أن
يلشى من غذائه . في غيابها تلعب مع ولديها . كنا في عمر متقارب .
للسعد إلى أعلى رصة أجولة الحبوب ونزلق، ثم ننطلق إلى الحوش
والشارع، حين تزداد مضايقاتهما لنا في اللعب، خاصة سالم ابنا
السكر الذي كان يعترض على ما أقترحه من ألعاب ويكثر من
اللمسائح، ويهدد بعدم اللعب، وأحيانا يتغلبان علينا في الحرب أنا
والهى، كنت أنهض من سقطتى وقد تملكنى الغضب وأعيرهما بما

- من يسمعك يظن أن حاجة كانت بتحصل .

- أبدا . كله كان هزار في هزار .

- ويعنى واحدة قالت له أه وقال لأ .

- وعمر ما واحدة تقول له أه بعد ما تشوف الست زينب

وتعرفها .

وتقول أمى : سمعت انها كانت حلوة .

- حلوة وحلوة .

- فلفة قمر .

- طول وعافية وبياض .

- ولا لف ولا دوران . الكلمة هي الكلمة .

- وآه يا ست أم ياسر لو شفيتها بتغير هدومها . كانت أوقات

تلبس روب فوق قميص بحمالات . قميص حرير يلمع . وأوقات جلابيب

إنما غير جلابيبنا . نسييت من أين كانت تأتيها . نصف كم . ووزاير

كبيرة من أمام أو من الخلف . ولونها المشجر . والسادة . ألوان حلوة .

وعمر ما جلابب وصل طرفه لقدمها . دائما بطن رجلها مكشوفة . رجل

مخروطة وناعمة بتبرق . وساعة الخروج الجلابب بتغير . يجرواها

على الأرض . والكم الطويل . والطرحة حول رقبتها . عمرها ما غطت

بها شعرها . كانت الناس تنتقدنها لما تشوفها ماشية كاشفة شعرها .

وحتى لو وصل لها كلام ولا كان يهيمها . مرات نعرف انها بتغير

هدومها . ونترك ما بأيدينا ونبص من فتحة الباب الموارب . وعينك ما

تشوف إلا النور . آيه . ولا آيه . ولا آيه .

ياكلانه عندنا ويلبسانه من جلابينا . يقفان لحظة صامتين مترددين، ثم يعودان للعب، ويتركاننا نتغلب عليهما، وكان ما يضايقني أنهما يسقطان سريعا مع بداية اللعب .

تخرج أمهما من حجرة الجد شاكر، وأكون في الحوش وأمی أيضا، نلتفت على صرير الباب في المر، ألمحا هناك تحمل الصينية على رأسها وتسوى بيدها صدر جلابها، تضع الصينية جانبا وتحمل ابريق الماء والطشت إلى المر، وبعد قليل تعود بهما وصينية طعام الجد الكبير وكانت خفيفة ليس بها غير سلطانية الشورية . تشطف المواعين وترصها في مكانها . وتسال امی إن كانت تريدها في شيء آخر ؟

وتكون أمی مشغولة، تعد الشاي لأبی، وأحيانا لضيوفه، أو ترتب الأطباق الصيني والملاعق، تنظر إليها خفقا وتقول :

- كتر خيرك يا أم سالم .

تشير لولديها أن يتبعها، أحيانا يجذب الصغير منهما جلابها في شدة، تتحنى عليه يهمس لها أنه يريد طبقا آخر من المهلبية . تدفعه أمامها خلال الباب الخارجي المفتوح وتمضى .

ويوما لمحتها خارجة من حجرة الجد شاكر . كنت مع ولديها في ركن الحوش نعد كرة من شراب قديم عندما وقفت في الحوش بجوار أمی . رأيت يدها تلم مزقا بصدر جلابها . كان المزق كبيرا كشف جانبا من ستيانها حائل اللون، وكانت ثمة خدوش خفيفة على خدها تتحسسها بأصابعها من لحظة لأخرى، انحنت أمی تنظر للخدوش وتلمسها خفيفا، ثم غابت وعادت بقطن ومطهر، أرقبهما في

فصول وأمی يعايج الحدوس . وجه ام سالم الساحب، وعيناها الساكتان .

بعدها حملت الطشت والابريق لتذهب إلى الحجرتين . همست أمی :

- خلى بالك من نفسك .

- فاهمة يا أم ياسر . والله فاهمة .

ولدى مغادرتها البيت أعطتها أمی جلابا من جلابيها .

فيما بعد، حيرني ما قالته أمی، كنت بلغت السابعة عشرة وأسألها كثيرا عن الأيام الماضية أحيانا تجيبني وأحيانا تسكت، وفاتني أن أسألها عن معنى ما قالته لأم سالم . وإذا كانت تعرف أن الجد شاكر يفعل شيئا مع المرأة كما يوحى بذلك ما قالته فلم كان سكوتها وموافقتها ؟

كنت صغيرا أيامها، لأعنى الكثير مما أراه، لكنه الفضول يدفعني للتحديق، والأحداث لا يتعدد كثيرا عني، كانت دائما في متناول بصري وسمعي، وكانت مجرد صدفة أن أستمع للجد شاكر وأم سالم وهما في الحجرة .

كنت في حجرة الجد الكبير، يتناول غداءه منحنيا على سلطانية الشورية وقد توقف عن عمل المراكب التي كان يصنعها لى من أوراق كراسة قديمة، أردت أن تكون عشرين مركبا حربيا، أسطول تلسون الذى هزم نابليون فى أبوقير كما حكى لى أبى .

وسألنى الجد الكبير : ومن تلسون ؟

صوت الجد شاكر خافت، يكاد لا يسمع، يشوبه فحيح
ويشرح.

- خذى . بريزتين .

- معى ما يكفينى .

- طب ثلاثة .

صمت . شخشة البرايز المعدنية . همس الجد :

- جيبك لأ . ايديك لأ . أظهم لك فين ؟

- ربنا ساترها . موش عايزة .

- حاتخديهم .

- رقبتي . بالراحة . حاتقطع الستيان .

- هو مقطوع من نفسه .

يطول الصمت . وأرى الجد الكبير يعود لتناول الشورية،

وأستدير لمراكبى . وتأتى أم سالم بطبق المهلبية .

الجد خافض بصره، يلم ساقيه المدودتين، تحمل أم سالم

الصينية وتخرج .

يصنع لى الجد عشرة مراكب أخرى، ويقول إنها تكفى، ويتمدد .

أحمل المراكب فى حجر جلبابى وأخرج باحثاً عن سالم وأخيه،

وأهدهما غادرا مع أمهما، أفرغ حجرى فى ركن الحوش حيث خط

سالم حدود البحر وانتظرنى . تسقط المراكب فوق بعضها . وأنطلق إلى

الخارج .

- قائد انجليزى .

- ومن نابليون ؟

- قائد فرنسى .

- ومالنا بهم . يضربون بعضهم كما يشاؤون . لم لا تصنع

مراكب لسعد زغلول ؟

- لا أعرفه .

كان قد صنع خمسة مراكب حين جاءت أم سالم بغدائه

تأملها صامتاً وهى تتحنى بالصينية أمامه، وظل يتأملها بعد أن فردت

طولها .

سألها إن كانت عملت مهلبية ؟

قالت وهى تستدير لتخرج :

- عملت لما تبرد .

يمتعنى صوت رشفاته المرتفع، أعطيه ظهرى حتى لا يرى

الضحك الصامت على وجهى كنت مستغرقة مع مراكبى أدفعها

بإصبعى فى اتجاهات مختلفة، وانتبهت لتوقف صوت رشفاته . التفت .

كان مائلاً برأسه مرهفاً أذنه تجاه الباب، الهمس يأتى واضحاً، يحتد

صوت أم سالم ويخفت :

-لأ يا حاج لأ . كله إلا كده .

- كفاية جلباب قطعته .

- شعرى . شعرى . ابعديك .

لا أميل كثيرا للجد شاكر، وأخى أيضا . كان سميئا مترهلا . يلتفت في حدة لأقل صوت حتى أنه يفزعنا، فمه مفتوح دائما، مبتل، يكاد اللعاب يسيل منه . يلبس الجلباب الواسع الذى يخفى بطنه الكبير، نكتم أصواتنا حين نمر بحجرته فى طريقنا إلى الجد الكبير . نخشى أن ينادينا رغم أنه لم يفعلها أبدا . المرة الوحيدة التى دخلنا حجرته كنا برفقة أبى لنقبل يده صباح العيد، بعدها كنا نختفى فى هذه المناسبات .

حجرته واسعة، وسريره ضخم، ورغم وجود دولاب كبير كانت ملابسه تتناثر على المقاعد والكنبة، حتى الداخلية منها، يلبس الجلباب الخفيف على اللحم، يلتصق بجسده ويشف عن ثدييه الكبيرين المتهدلين، لباسه القصير لا يكاد يستر شيئا من فخذييه الهائلتين المكسوتين بشعر كثيف، ربما بسبب ذلك تتجنب النسوة فى الحوش الدخول لحجرته، وأمى أيضا، وعندما تحتاج الحجرة لتنظيف أو تهوية من رائحة عرقه تاتى أم سالم . يتربع فوق الفراش لا يتركه إلا للخروج أو الذهاب للمرحاض .

فى المرات التى يلقانى فيها بالبيت كان يضربنى على قفاى، توجعنى ضربته، ويقول كلمة أو كلمتين ويمضى ضاحكا، وفى الشارع يمر بنا أنا وأخى لدى ذهابه لصلاة الجمعة التى يحرص عليها، ولا يبدو أنه عرفنا .

ينطلق فى الليل باحثا عن الأفراح خارج البلدة، متجنبا ما يقام منها فى الداخل، رغم ذلك كانت أخباره على كل لسان فى البلدة . وفى المرات القليلة التى يظهر فيها بالشوارع كان البعض من الأهالى

يلتفتون نحوه وعلى وجوههم بوادر سخرية سرعان ما تختفى، وربما تذكروا لحظتها ما سمعوه وهم يرونه فى مشيته الوقور وهالة العظمة التى يحاول أن يوحى بها، تتوجها حركة العصا فى يده التى عجز الكثيرون عن تقليدها، وكانت العصا بلمعة بنية ورأس ذهبية تتوهج حين يمسها الضوء، وكان هناك دائما من يردد فى صوت يسمعه القريبون منه :

- سبحان الله .

تنتظره عربة الحنطور التى يستأجرها على المحطة، يرافقه ثلاثة من عمر أبى كانوا يعملون بوابور الطحين الذى يملكه الجد الكبير، ولابد أن الجد شاكر عرفهم عندما كان يشرف على الوابور، وطردهم أبى عندما استلمه بعد الجد، قليلون الذين عرفوا أن الجد هو الذى نصح أبى بطردهم، فقد كانوا يسرقون الطحين، ولن يستطيع من كان مثل أبى أن يكتشف ألعيبهم أو يتعامل معهم، لا يبالى بهم الجد أثناء النهار، وإن تصادف والتقى بهم يمضى وكأنه لا يعرفهم، وأشيع عندما طردهم أبى أن الجد لن يسمح بذلك وهم رفقة فى السهرات، وأنها مسألة أيام ويعودون للعمل . غير أنهم لم يعودوا أبدا

ينفر الجد من السهرات التى تجمع من كانوا فى سنه من أعيان البلدة، الجلوس بالمقهى الكبير على شط النهر، مسترخين فى طمأنينة على مقاعدهم، والشيشة المخصصة لهم، ست أو سبع شيشات مزينة بهلقات من النيكل، ورسوم على زجاجها لوردتين وفرع شجرة ووجه أسد أو نممر يكشر عن أنيابه، والتبماك الذى يأتون به من العاصمة،

ويتركون لفافات منه فى المقهى لاستخدامهم، ينحنى عامل نظيف يختص بخدمتهم ويهمس للواحد منهم بأن لفافته تؤشك على النفاد، ويتراجع، ويسبل من همس له عينيه لحظة ويعود لحديثه يلبسون دائما الجلباب الأبيض أو السمنى، وعلى الكتفين عباءة خفيفة جاوا بها من الأرض المباركة، موشاة بتطريز كثيف على جانبي فتحتها وطرفى الكمين الواسعين .

لا تخلو سهرة لهم من الكلام عن أسعار المحاصيل ومقارنتها بأسعار العام الماضى . الجد وقد بلغ الخمسين لا يملك شيئا، كل الثروة الضخمة من أراض وحدائق ومناحل ومعامل ألبان ووابور طحين وحتى البيت ما زالت ملك الجد الكبير، الجد شاكر لا يشغله هذا الأمر ولا تؤرقه هموم الأعيان، يظل يستمع إلى ثرثرتهم ومخاوفهم التى يتظاهرون بها . فالأسعار كما فهم من كلامهم زادت، إلا أنهم اعتادوا الحذر، فلا يدرى أحد ما تخفيه الأيام.

فى نهاية السهرة لا مانع من المشى قابلا، خاصة فى الليالى المقمرة .

المرات التى شاركهم الجد سهراتهم كان يستمع إليهم مغمضا عينيه خفيفا كأنما يراوده النعاس، ويده مسترخيتان على بطنه الكبير، يمخط من حين لآخر فى صوت مرتفع، يسكتون حتى يتوقف الصوت ثم يواصلون الكلام .

النساء . الموضوع المفضل للحديث عند جدى، لحظتها يصحو وينتعش، وتتألق عيناه، وتكثر نكاته، ما أن يراهم وقد طال الصمت وشردت نظراتهم نحو مياه النهر الداكنة حتى يبدأ حديثه فى حذر،

يعرف أنهم يتقبلون كلامه فى حدود معينة لا يجوز له أن يتخطاها، كانوا حريصين على مكانتهم فى البلدة، ولا يسمحون أن ينالها أحد بكلمة .

يحكى الجد عن امرأة ماء، التقى بها فى مكان ما، صادها بالكلام، قال لها كذا وكذا، وقالت له كذا وكذا، هذا الجانب من الحديث الذى كانوا ينصتون إليه يطيل فيه الجد، ويكون قد اعتدل قليلا فى جلسته، وأخرج قدميه من الحذاء، ثم ينسى نفسه . يتحدث فى وله كيف اختلى بها، تهرب منه وهو يلاحقها، تهمس فى دلح " ابعده ايدك " ولا يبعدها، تستكين أخيرا بين ذراعيه، يخلع ملابسها قطعة قطعة . وتهمس له :

- بالراحة على

- طيب .

ثديها النافران وحلماتها تنتصبان فى رعشة محمومة، " أهى دى النسوان "، تأوهاتا ويده تزحف على بطنها، أه . شعر العانة . هنا القضية . أصابعك تمشطه، تنكشه، تسويه ، متعة الدنيا، وتأتى الواحدة منهن وتزليه . أه والله . تنظف نفسها لترضى رجلها . تمد يدك وكأنك تلمس رأس زغلول الأقرع، من يتذكره منكم ؟

الجد وقد أخذته نشوة الكلام لا يكاد يرى أو يسمع، ثم يلمحهم ولوفا على بعد خطوتين، يصمت الجد محققا نحوهم فى عجب، يخرج مندبلا كبيرا من جيبه يجفف العرق المتدفق على وجهه ورقبته، تبحث لدماه عن الحذاء مغمفا :

- أه . أن الأوان

يلتفتون نحوه وعلى وجوههم بؤادر سخرية سرعان ما تختفى، وربما **تذكروا** لحظتها ما سمعوه وهم يرونه فى مشيته الوقور وهالة العظمة التى يحاول أن يوحى بها، تتوجها حركة العصا فى يده التى عجز **الكثيرون** عن تقليدها، وكانت العصا بلعمة بنية ورأس ذهبية تتوهج حين **يمسها** الضوء، وكان هناك دائما من يردد فى صوت يسمعه القريبون **منه** :

- سبحان الله .

تنتظره عربة الحنطور التى يستأجرها على المحطة، يرافقه ثلاثة **من** عمر أبى كانوا يعملون بوابور الطحين الذى يملكه الجد **الكبير**، ولا بد أن الجد شاكر عرفهم عندما كان يشرف على الوابور، **وطردهم** أبى عندما استلمه بعد الجد، قليلون الذين عرفوا أن الجد هو **الذى** نصح أبى بطردهم، فقد كانوا يسرقون الطحين، ولن يستطيع **من** كان مثل أبى أن يكتشف ألعبيهم أو يتعامل معهم، لا يبالى بهم **إجد** أثناء النهار، وإن تصادف والتقى بهم يمضى وكأنه لا يعرفهم، **وأشيع** عندما طردهم أبى أن الجد لن يسمح بذلك وهم رفقتة فى **السهرات**، وأنها مسألة أيام ويعودون للعمل . غير أنهم لم يعودوا **إهدا**

ينفر الجد من السهرات التى تجمع من كانوا فى سنه من أعيان **البلدة**، الجلوس بالمقهى الكبير على شط النهر، مسترخين فى طمأنينة **هلى** مقاعدهم، والشيشة المخصصة لهم، ست أو سبع شيشات مزينة **بحلقات** من النيكل، ورسوم على زجاجها لوردتين وفرع شجرة ووجه **أسد** أو نممر يكشر عن أنيابه، والتبماك الذى يأتون به من العاصمة،

لا أميل كثيرا للجد شاكر، وأخى أيضا . كان سميئا مترهلا . يلتفت فى حدة لأقل صوت حتى أنه يفرعنا، فمه مفتوح دائما، مبيتل، يكاد **اللعاب** يسيل منه . يلبس الجلباب الواسع الذى يخفى بطنه الكبير، **نكتم** أصواتنا حين نمر بحجرته فى طريقنا إلى الجد الكبير . نخشى أن ينادينا رغم أنه لم يفعلها أبدا . المرة الوحيدة التى دخلنا حجرته كنا برفقة أبى لنقبل يده صباح العيد، بعدها كنا نختفى فى هذه **المناسبات** .

حجرته واسعة، وسريره ضخم، ورغم وجود دولاب كبير كانت **ملابسه** تتناثر على المقاعد والكنبة، حتى الداخلية منها، يلبس الجلباب **الخفيف** على اللحم، يلتصق بجسده ويشف عن ثدييه الكبيرين **المتهدلين**، لباسه القصير لا يكاد يستر شيئا من فخذه الهائلتين **المكسوتين** بشعر كثيف، ربما بسبب ذلك تتجنب النسوة فى الحوش **الدخول** لحجرته، وأمى أيضا، وعندما تحتاج الحجرة لتنظيف أو **تهوية** من رائحة عرقه تاتى أم سالم . يتربع فوق الفراش لا يتركه إلا **للخروج** أو الذهاب للمرحاض .

فى المرات التى يلقانى فيها بالبيت كان يضربنى على قفاى، **توجعنى** ضربته، ويقول كلمة أو كلمتين ويمضى ضاحكا، وفى الشارع **يمر** بنا أنا وأخى لدى ذهابه لصلاة الجمعة التى يحرص عليها، ولا **يبدو** أنه عرفنا .

ينطلق فى الليل باحثا عن الأفراح خارج البلدة، متجنبا ما يقام **منها** فى الداخل، رغم ذلك كانت أخباره على كل لسان فى البلدة . وفى **المرات** القليلة التى يظهر فيها بالشوارع كان البعض من الأهالى

ويتركون لفافات منه فى المقهى لاستخدامهم، ينحنى عامل نظيف يختص بخدمتهم ويهمس للواحد منهم بأن لفافته توشك على النفاد، ويتراجع، ويسبل من همس له عينيه لحظة ويعود لحديثه يلبسون دائماً الجلباب الأبيض أو السمنى، وعلى الكتفين عباءة خفيفة جاوا بها من الأرض المباركة، موشاة بتطريز كثيف على جانبي فتحتها وطرقي الكمين الواسعين .

لا تخلو سهرة لهم من الكلام عن أسعار المحاصيل ومقارنتها بأسعار العام الماضى . الجد وقد بلغ الخمسين لا يملك شيئاً، كل الثروة الضخمة من أراض وحدائق ومناحل ومعامل ألبان ووابور طحين وحتى البيت ما زالت ملك الجد الكبير، الجد شاكر لا يشغله هذا الأمر ولا تؤرقه هموم الأعيان، يظل يستمع إلى ثرثرتهم ومخاوفهم التى يتظاهرون بها . فالأسعار كما فهم من كلامهم زادت، إلا أنهم اعتادوا الحذر، فلا يدرى أحد ما تخفيه الأيام.

فى نهاية السهرة لا مانع من المشى قابلاً، خاصة فى الليالى المقمرة .

المرات التى شاركهم الجد سهراتهم كان يستمع إليهم مغمضاً عينيه خفيفاً كأنما يراوده النعاس، ويده مسترخيتان على بطنه الكبير، يخطط من حين لآخر فى صوت مرتفع، يسكتون حتى يتوقف الصوت ثم يواصلون الكلام .

النساء، الموضوع المفضل للحديث عند جدى، لحظتها يصحو وينتعش، وتتألق عيناه، وتكثر نكاته، ما أن يراهم وقد طال الصمت وشردت نظراتهم نحو مياه النهر الداكنة حتى يبدأ حديثه فى حذر،

يعرف أنهم يتقبلون كلامه فى حدود معينة لا يجوز له أن يتخطاها، كانوا حريصين على مكانتهم فى البلدة، ولا يسمحون أن ينالها أحد بكلمة .

يحكى الجد عن امرأة ما، التقى بها فى مكان ما، صاهاها بالكلام، قال لها كذا وكذا، وقالت له كذا وكذا، هذا الجانب من الحديث الذى كانوا ينصتون إليه يطيل فيه الجد، ويكون قد اعتدل قليلاً فى جلسته، وأخرج قدميه من الحذاء، ثم ينسى نفسه . يتحدث فى وله كيف اختلفى بها، تهرب منه وهو يلاحقها، تهمس فى دلح " ابعديك ولا يبعدها، تستكين أخيراً بين ذراعيه، يخلع ملابسها قطعة قطعة . وتهمس له :

- بالراحة على .

- طيب .

ثدياها النافران وحلمتاها تنتصبان فى رعشة محمومة، " أهى دى النسوان "، تأوهاتا ويده ترحف على بطنها، أه . شعر العانة . هنا القضية . أصابعك تمشطه، تنكشه، تسويه ، متعة الدنيا، وتأتى الواحدة منهن وترزله . أه والله . تنظف نفسها لترضى رجلها . تمد يدك وكأنك تلمس رأس زغول الأقرع، من يتذكره منكم ؟

الجد وقد أخذته نشوة الكلام لا يكاد يرى أو يسمع، ثم يلمحهم وقوفاً على بعد خطوتين، بصمت الجد محققاً نحوهم فى عجب، يخرج منديلاً كبيراً من جيبه يجفف العرق المتدفق على وجهه ورقبته، تبحث قدمها عن الحذاء مغمماً

- أه . أن الأوان .

يمشى الجد متبخترا كما اعتاد، والإشاعات كسحابة قائمة تتبعه، لا يبدو أنه يلقي إليها بالا. يحيى من يعرفه بهزة خفيفة من رأسه، تلك المرات القليلة التي يخرج فيها أثناء النهار، وأحيانا يقف أمام دكان يتبادل كلمات مع صاحبه، وإحدى قدميه مرفوعة إلى المصطبة، والعصا تحت إبطه، وعيناه المنتفتحتان تتجنبان ضوء الشمس ربما كان العناد ما دفعه لمعاودة الذهاب إلى قعدة الأعيان، يحكى عن **العسد** حكايات بعينها، ويраهم ينصرفون أثناء حكيه، وينفجر ضاحكا **في صخب**، كانوا رجالا مهذبين، لا تخرج الكلمة المعيبة من أفواههم إلا **لضرورة**، حتى كانت ليلة شاركهم القعدة، وقال واحد منهم فى صوت **هافت** وهم ينصرفون :

- يعطيه طولة العمر والدك .
- حذق فى أثرهم ساهما، تمت
- لا يقولها حبا فى والدى
- وكانت المرة الأخيرة .

ابتسامة البعض منهم الغامضة وهم ينصرفون دون انتظاره، ربما لمحها الجد وذكرته بما يشاع عنه من بذاءات تمس فحولته التي يتباهى بها . تسرى الإشاعة كالبرق وتستمر ما يقرب من العشرين يوما، وما تكاد تهدأ حتى تسرى أخرى، أصبح كما قال أبى "موضوعا للتسلية" .

أشيع عنه مرة أنه مثل الديك " منفوش على الفاضى ، ما يكاد يلمس أنثاه حتى ينتهى، وأشيع عنه بعدها أن عضوه صغير مثل غلام فى العاشرة، وقيل إن كثيرين رأوه وهو يستنجى فى النهر قبل الوضوء على سلم الجامع، رغم أنه كان يأخذ جانبا ولا يقعى جنب الآخرين الذين يرى كل منهم الآخر دون حرج .

عايرنى الأولاد فى الحارة بالإشاعة أياما طويلة، وسببت لى الكثير من العراك، وكان يكفى أن يلوح الولد بإصبعه حتى أفهم ما يعنيه . ودفعنى ذلك لأن ألتصص على جدى . كان لباسه القصير لا يسمح برؤية شىء، وفى نومه يكوم الجلباب بين فخذيه، حتى كانت مرة وأنا فى طريقى إلى الجد الكبير، ولحت الجد خلال باب حجرته الموارب يغير ملابسه فاندفعت داخلا، استدار بظهره للباب وزمجر :

- اخرج .

تلكأت قليلا وقد أخذتني الدهشة من رؤية إلتيه الضخمتين، وطيأت اللحم الغليظة بجنبيه، ويقع من الشعر تتناثر على جسده، تقدمت خطوة، التفت يرمقنى من فوق كتفه متجهما :

- اخرج .

وخرجت

قالت أمى : لا تقسو على جدك شاكر كأبيك .

كانت متربعة على الكنبة فى الصلاة الصغيرة كما رأيتها دائماً، بيدها الابرة والخيط، تلفق ثقوباً فى الشرابات، كنت فى السابعة عشرة، أحوم حولها، وألاحقها بالأسئلة عما كنت أراه وأسمعه فى صباى .

قالت : مهما فعل جدك، وماذا فعل ؟ هو أيضاً مظلوم .

شردت نظراتها قليلاً، ثم قالت :

- عاش طول حياته لا يملك شيئاً رغم ثروة أبيه الكبيرة، وربما كان مثل غيره من أبناء الأعيان ينتظر الميراث . ولم يأت الميراث . وأشهد يوم القيامة أننى لم أسمع يوماً كلمة منه أو حتى إشارة صغيرة عن ذلك .

شردت نظراتها مرة أخرى وقالت :

- ولم يدخل مدارس، ولا عرف فلاحاً أرض، كان بعيداً، عمل عند أبيه ، يشرف على وابلور الطحين، ويأخذ راتبه مثل غيره فى نهاية الأسبوع، وحتى بعد أن تزوج لم يتغير شىء . يطلب من أبيه ما يشتري به ملابس له ولأمراته .

- كان يمد يده على إيراد الطحين .

- لا تقل يمد يده . كان يأخذ حاجته . واحد مثله يذهب هنا وهناك . ويسهر مع أصحابه، وابن الحاج الكامل . اسم طول وعرض لا بد أن يكون معه ما يصرفه.

فيما بعد . حين تولى أبوك الأمور، ويعد ان نفذ جدك يديه من أى عمل، وقال تعبت . كان أبوك يعطيه ما يكفى . لا ينتظر أن يسأله .

وأنتذكر - وأمى تحكى - مشهدا رأيته فيما مضى وأنا فى طريقى إلى حجرة الجد الكبير . أم سالم عند الجد، عادة ما يغلق الباب، هذه المرة كان مواربا، ألحها متربعة على الحصير، والجد ممد على ظهره ورأسه على فخذيها، كانت تقطر فى عينيه من زجاجة صغيرة.

أكاد أسأل أمى، ولا أسأل .

ينطلق الحنطور فى ظلمة الليل حاملا الجد ورفاقه الثلاثة . الجد وحده فى المقعد الكبير وعصاه بين ساقيه، ينتهد فى راحة بعد أن خرج من البلدة، كان يشكو جوها الذى يكتم أنفاسه " كل هؤلاء الناس وأولادهم وبهائمهم وبواجنهم وفئرانهم يتنفسون فى وقت واحد ويضربون " . رفاقه محشورون على المقعدين الصغيرين أمامه، الجد لا يخطر له أن يدعو واحدا منهم إلى جواره ليفسح للأخرين، ولا هم انتظروا منه ذلك . يهللون لنكات قالوها مرات من قبل، غير أنها رغبتهم فى المرح بمجرد مغادرة زمام البلدة . ينطوى غطاء الحنطور، ضوء القمر الناعم، وأحواض الزرع على الجانبين وقد هالت عيدان القمح بسنابلها الممتلئة، أشجار متفرقة، ما أن يتقدم الحنطور قليلا حتى يلمحوا من زاوية أخرى هيكل الساقية، وكأنما كانوا ينتظرون رؤيتها حتى يسترخوا فى قعدتهم ويخرجوا سجايرهم المشوذة بالحشيش، الجد لا يدخن، يأخذ السجارة منهم لسايرتهم .

- الجو جميل يا حاج . والصحبة حلوة . سمعنا ضحكك .

بيتسم الجد . هو فى بداية السهرة، لم يتدمج معهم بعد .

يحكون عن الفرخ الذى يقصدونه، وفرقة العوالم التى جاؤا بها من المنصورة، والراقصة وصوتها ودلعها . يتساءل الجد إن كان يعرفها؟

ويقولون : هذه لم ترها من قبل .

- بلفتها .

- تريد يدك لتفكها .

- إن لم تعرفك . فلا بد سمعت عنك .

الجد معروف بين فرق العوالم، يقال إنه غاوى مغنى وطرب، م من فرقة التقى بها إلا وقام معها بواجب، وفى موسم المانجو والكمثرى تعد أرقام منها وترسل مع سائقى الأتوبيسات إلى جهات مختلفة، ويأتى الرد إلى الجد فى البيت، غلام يقف بالباب ويقول:

- الأسطى فلان يقول للحاج شاكركه تمام .

يحمل الحنطور دائما عددا من زجاجات الشربات وعلب الملبس الملون لأهل العرس، يدخل بها رفاقه الثلاثة وسط زحام الفرخ صائحين :

- وسّعوا . وسّعوا . شربات الحاج شاكركه أكبر أعيان

الناحية .

الجد ما يزال فى الحنطور قرب السرادق، أضواء الكلوبات الباهرة ، وزغاريد، ودقات الدفوف، وجه الجد متأهب للمرح، فمه المفتوح قليلا كأنه يضحك فى صمت .

تخفت الضجة بعد أن احتوى السرادق الجميع، وطُرد الأولاد للخارج ، فسدسوا رؤوسهم فى الفراغات بين جوانب السرادق . والعروسان فى الكوشة، وفرقة العوالم اعتلت المنصة الخشبية .

يلمح الجد رفاقه يشيرون إليه، يهبط متمهلا ويسير إليهم ، يدخل من فتحة أمامية، يجد نفسه قرب المنصة ، يصيح أهدم :

- سلام مخصوص للحاج شاكركه .

وتضج الآلات والدفوف بالتحية، وتهز الراقصة وسطها مرات وتلتدتم المنصة . ثوبها الأسود من الحرير الخفيف مغطى بالترتر وهلقات ذهبية صغيرة، مشقوق الكمين ومن الذيل حتى الركبة، تنطلق أراعاها البضتان عاريتين، تتعانقان فوق رأسها، وينكشف إبطها ناعما برانقا، وتدفع بساقها، تخرج السمانة قليلا وسط الهتافات، تميل إلى الأمام والجد يمر بها، صدر الثوب مفتوح، منبت ثدييها الكبيرين أمام هيليه، يعرف من الصمت وراءه أن النظرات ترقبه، يبعد عينيه وأنفاسه القلح خفيفا، يغير اتجاه يده الممدودة ويدس النقوط فى ربطة رأسها الوردانة بالترتر، وربما شعر بإحساس الراحة الذى شمل الجميع لما أباداه من حشمة، يلتفت ويبتسم لهم ويبادلونه الابتسام . ويأتى أهدم بعقد مكسو بالقטיפه من بيت قريب، يحمله على رأسه ويشق الزحام إلى مكان الجد، أحيانا لا يعرفه أهل الفرخ، ولا سمعوا باسمه، غير أن هناك دائما من كان يذكر اسم الجد الكبير الحاج كامل فلهرون به .

يستأذن الرفاق الثلاثة وأعضاء الفرقة فى الابتعاد
بمقاعدهم قليلا لأنهم سيدخنون حجرتين والرائحة تضايق الحاج
فهللوا على بعد خطوات حول ترابيزتين متجاورتين عليها الأطباق،
ودارت أكثر من جوزة بينهم .

الجد ومعه الراقصة ياكلان، يمد يده بإصبع الكفتة إلى فمها،
للنرج شفتاها، عيناها فى عينيه، يتبسم خفيفا وتقضم طرف الإصبع،
الجد وقد ارتخى فمه وامتلا باللعب يهمس :

- قزضة ثانية . كبيرة .

يميل رأسها جانبا وتتنظر إليه عيناها اللامعتان المكحولتان،
للضم الإصبع .

- كفاية يا حاج .

الجد مقبل عليها بصدرة الضخم يكاد يلتصق بها :

- واحدة كمان . كبيرة .

تمس الإصبع بطرف لسانها وتبتعد، ثم تقبل عليه . تأخذ ثلثة
إلى فمها، تطبق شفتيها ساكنة، يرتج جسدها بضحكة مكتومة، تقضم
الإصبع وتمضغه فى بطنه، الجد يلقى ما تبقى منه فى فمه، يتنهى فى
عمل مسترخيا :

- أية يا حاج . بتمتحنى ؟

- أمتحكك ؟ وانت ست الستات .

- سمعت عنك كثير . بتخوفنى .

لا يطيل الجد من قعدته، يشرب الشربات، ويردد كلمات
التهانى لكل من يسلم عليه، ويهز رأسه مبتسما لفتيات يرقصن فى
إحدى الزوايا، وتكون عيناها أخذتا كفايتهما من جسد الراقصة
وتبادل معها النظرات، ويخرج يصحبه واحد من أصحاب الفرع حتى
الخطور .

عادة يظل المقهى على المحطة ساهرا فى مثل هذه الليالى لحين
انتهاء الفرع، وعربة شواء كفتة وكباب وكرشة فوقها كلوب يغطى ضوءه
مساحة واسعة .

يأخذ الجد ورفاقه جانبا بعيدا عن الضوء وعيون البعض من
زبائن المقهى ترمقهم فى فضول .

تأتى الفرقة مع منتصف الليل، لقد تبعها حشد من مكان الفرع،
راح يتفرق خلال الطريق، وتكون السيارة التى تستأجرها الفرقة قد
عادت منذ قليل وانتظرت بجانب المقهى، عادة ما تكون السكة إلى
الفرع ضيقة لا تسمح بمرور سيارة . فى لحظات يستطيع رفاق الجد
أن يأتوا بسائقها ليشاركهم القعدة .

أعضاء الفرقة _ خمسة غالبا بالراقصة _ مرهقون، غير أنهم
يهللون فرحا لرؤية الجد الذى يبدو لحظتها كأنما أفاق من خموله،
ينهض مرحبا، مناديا على مقاعد وقد تألق وجهه وتهدل شاله الحريرى
على صدره . الراقصة وقد عرفت أن العين عليها تنهداى نحوه، وتختار
مقعدها فى دلال بجانبه، الجد يفيض بشرا، خفيف الحركة، يميل
نحوها مبتسما، تتوالى أطباق الكفتة والكباب .

يميل عليها وذراعه على ظهر مقعدها :

- وسمعت أياه ؟

ترحف يده إلى كتفها، تتمهل عند رقبتها ثم تنزلق إلى فتحة الصدر، تتحسس إصبعة المجرى بين ثدييها المبتل بالعرق، تميل رأسه عليها، تبتعد، تغمغم :

- العرق . الدنيا حر . وطول الليل بقرص .

- عرقك حلو .

تنزلق يده قليلا . تهمس :

- زوجي بيبيص علينا .

- مين فيهم ؟

- لابس جاكته .

أحيانا تتزوج الراقصة بواحد من الفرقة، يميز نفسه عنهم بسترة يلبسها فوق الجلاب، يطل من جيبها الصغير طرف منديل أحمر أو أزرق، وعادة يمسك العود، يفتح الحفل بعزفه المنفرد، جالسا على مقعد أمام أعضاء الفرقة وساقه فوق الأخرى، الراقصة تقف بجواره مستندة بيد إلى ظهر المقعد، تغمض عينيها قليلا، ويتمايل رأسها طريا مع نغمات العود .

وسواء صدقها الجد أو لم يصدقها كان يختطف نظرة إليهم بطرف عيني، ويراهم مقبلين على الطعام والجوزة، وصاحب السترة شمر كميتها وأعطاهما ظهره أو جنبه .

تنزلق يد الجد إلى مدى أبعد، العرق غزير تحت ثدييها، ما يكاد يحتويه في كفه حتى تبتعد، تنحنى وكأنما تلتقط ما وقع منها، وتتحرر بذلك من ذراعه، تهمس في انحنائها :

- زوجي يا حاج . يرضيك ؟

يعتدل الجد في جلسته، هي أيضا تسترخى في مقعدها وقد خبت لمعة عينيها، ويبدأ الإرهاق على وجهها، تمد يدها تتحسس صدر الجد :

- مسيرنا نتلاقى يا حاج .

وتهمس بعد لحظة :

-الواحدة منا . وهي بعرقها . يعنى . ماتزعلش .

يخيم عليهما الصمت، تسقط ذراعها بجوارها كأنما . سيغلبها النعاس .

الخلاء يمتد بعيدا . لاشيء سوى أحواض الزرع، وبناء مهدم على مرمى البصر، بجانبه شجرة، ومقام لأحد الأولياء، نافذته بلون قاتم، وقضبانها تتلقى رذاذا من ضوء الكلوب .

وتكون قطعة الحشيش التي يحملها واحد من رفاق الجد قد نفدت، والأطباق خاوية، لم يتبق بها غير فتافيت من البقدونس الذي ينثرونه فوق الكفتة والكباب وقليل من مياه السلطة .

يصعد أعضاء الفرقة واحدا بعد الآخر إلى العربية، الراقصة آخرهم، تصعد مستندة بيدها إلى كتف الجد، وتتحرك العربية على وعد بلقاء قريب .

ينطلق الحنطور عاندا، الرفاق الثلاثة وقد استخفهم المرح
يتبادلون الغناء، ونسمات طرية تلفحهم، يقول واحد منهم :

- وطول الوقت شايفك يا حاج .

ويقول آخر :

- انما تمام التمام .

يبتسم الجد متحسسا خده حيث لمسته أنامل الراقصة وقرصته
خفيفا قبل اختفائها فى السيارة ويقول :

- أه . ليلة جميلة .

يخطر لى أحيانا من التفاصيل الكثيرة التى يردها الناس عن
سهرات الجد أن رفاقه الثلاثة ربما كانوا يحكون من ورائه ما يفعلونه
من قبيل الزهو .

لا ينام الجد الكبير قبل عودة الجد، يقعد فى فراشه مكتفيا
بضوء المصباح الصغير الذى يتسلل من المر عبر باب الحجرة المفتوح،
يدعك ساقيه الواهنتين من حين لآخر مرهفا سمعه للأصوات فى
الخارج وكانت تخفت وتتباعد مع تقدم الليل، فمه الأرد فى حركته
الرتيبة كأنما يلوك شيئا على مهل . يتمتم :

- وينامون !

ويهز رأسه خفيفا فى أسف، ويتمتم مرة أخرى :

- أه . سرعان ما ينامون !

تقلب نوية من النعاس، ما أن يميل جذعه جانبا ويوشك على
السقوط حتى ينتبه، ومرات يريح ظهره للوراء ويغفو طويلا، يوقظه
صوت كلب شارد، وكأنما يخشى أن يكون الجد جاء أثناء غفوته، كان
يتجه إلى الباب، ويمد رأسه منصتا، وحتى يتأكد أكثر يقف بباب حجرة
الجد، ينتظر حتى تتعاد عيناه الظلمة داخلها ثم يعود إلى فراشه، وفى
كل مرة كان يلوم نفسه .

- أه . وشخير . كنت سمعته . . .

رغم حذرى، كانت أذنه تلتقط صوت حركتى حين أتسلل من باب

وينحنى، وتطول انحناعته، وأميل برأسى لأرى إن كان نعس،
ويسألنى إن كنت أحب الجد ؟
وأقول إننى لا أحب .
ويسألنى عن السبب ؟
وأقول إنه تخين وعرقه كثير .
وأكون زهقت فاقفز منطلقاً من الباب .

على السطح أرض قطع الحجارة _ التى سبق أن أعدناها أنا
وسالم _ فى جيشين متقابلين، الحمراء فى جانب والبيضاء فى الجانب
الأخر . وأكون مستغرقاً فى المعركة حين أسمع صوت الجد عانداً،
وأنتسل إلى السلم، وأقبع على درجة تسمح لى بالتلصص على مدخل
الحجرتين .

ضجة الجد المعتادة لدى رجوعه، لا يبىو حريصاً على راحة الجد
الكبير الذى يجاوره أو أى أحد آخر، كان أبى يقلق فى نومه، أسمع
من حجرتى يغمغم فى صوت ناعس :

- رجع ؟

- وتهمس أسمى :

- أه رجع .

- ويعودان إلى نومهما .

يتجشأ الجد بصوت مرتفع ويتأوه، يلقي بحذائه فردة بعد
الأخرى، تصطدم بجانب الدولاى كأنها دقات طبل، يخرج والقباق
فى قدميه إلى المرحاض، يترك بابه دائماً نصف مفتوح لهواء يدخل
إليه، تدوى ضرطته وسط السكون، يقف لحظة أمام المرحاض يعدل

الوسط، أكون فى طريقى إلى السلم لأصعد السطح، ويأتى صوته
ينادىنى وأخى، وقد ظن أننا معا، ألبد ساكننا فى مكانى، وينادى مرة
أخرى، يفرينا بالحواديت التى لم نسمعها من قبل، وأتردد فى الذهاب
إليه، الحواديت فى الليل تخلط فى رأسه فلا أفهم شيئاً، يحكى عن
نخلة ويقول إن ما تطرحه من جميز كان مسكراً، وحتى وهو يحكى عن
الحماراة العمياء أجده يقول إنها جلست إلى الطبلية وقالت كذا وهى
تاكل، يبداً بشىء ثم يحكى عن شىء آخر، وحين أنبهه يلتفت نحوى،
وتمر لحظة وهو يحدق فى وجهى، ثم وكأنما تذكرنى، تنفرج تقاطيع
وجهه ويغمغم :

- طيب . طيب . نحكيها من الأول .

وحين يغلبه النعاس أتسلل على طرف قدمى، وما أكاد أصل إلى
الباب حتى ينادىنى. ومرات كان يقطع الحدوتة ويسألنى.

- أين تظن جدك ذهب؟

- وما يدرينى :

- ألم تره أبداً فى أى مكان؟

- أوقات أراه فى الشارع.

- وغير الشارع؟

- غير الشارع . غير الشارع . غير ..

- مقهى . دكان . أى بيت؟

- ولا هنا . ولا هناك .

لباسه، جسده الضخم العارى فى الضوء الخافت، حجرة الجد الكبير على بعد خطوتين منه، بابها موارب، يخيم عليها الصمت، لا يلتفت إليها الجد، يمضى إلى حجرته، صرير الألواح الخشبية وهو يعتلى السرير، زفيره كأنما يتأهب للنوم، ويسود الصمت لحظات . يأتى صوت الجد الكبير هادئا :

- وأين كنت ؟

الجد لا يجيب .

يعود الجد الكبير للسؤال، والجد لا يجيب .

يقول الجد الكبير إنه لابد واحد من الأماكن الوسخة التى اعتد عليها .

ويزمجر الجد :

- خليك فى حالك .

- كل ليلة سهر حتى الفجر . ولا ليلة واحدة واحدة تقضيها فى البيت .

- أفضل من القعاد جنبك .

- طب تساعد فى حاجة . ساعد ابنتك .

- اشتكى لك ؟

- لم يشتك . إنما يكون عندك نظر .

- لما يشتكى لك قل لى . وسيني أنا .

صرير الألواح الخشبية فى حجرة الجد، ربما يغير رقدته معطيا ظهره للباب كعادته حين يريد أن ينهى الكلام مع الجد الكبير .

يسأل الجد الكبير بعد صمت :

- ومن قابلت الليلة .
الجد لا يرد . يعود الجد الكبير للسؤال . يزمجر الجد :

- لم أقابل أحدا .

- ولا أى واحد أعرفه ؟

- كل من تعرفهم ماتوا .

- من ؟

- كلهم .

- دسوقى لم يمت .

- دسوقى . دسوقى . ولا غيره على لسانك .

- رأيته ؟

- دسوقى فى بيته .

- يخرج ؟

- لا يخرج . ولا يمشى . ولا يتكلم .

- ولا مرة تزوره ؟

- ولم أزوره ؟ كان صاحبى ؟

- واحد فى مرض .

- ولم لا تزوره أنت ؟

- صحيح . لم لا أزوره أنا .

أتخيل الجد الكبير فى فراشه منحنيا يدعك ساقيه، وتزداد انحناءته حتى تصل يداه إلى قدميه الكبيرتين المفلطحتين، يتحسس

الشقوق العميقة بكعبيه، يقول أبى إنه ظل أمدا طويلا لا يلبس شيئا فى قدميه، وحين اقتنى الحصان اشترى حذاء .

يميل الجد الكبير فى كل مرة يتكلم محققا النظر خلال فتحة الباب الموارب :

- القصد . لم تر أحدا . كما خرجت عدت .

وأثأهب لمغادرة مكائى وقد أحسست أن نقاشهما انتهى، وربما أراح جدى الكبير فى هذه اللحظة ظهره للوراء استعدادا للنوم، ثم أسمعته يسأل :

- والشونة القديمة، نقلوها ؟

- وما أدرائى ؟

- ولا مرة مشيت هناك ؟

- مشيت ولم أرها .

- لا بد أنهم نقلوها، ومنعم اشترى المكان . طول عمره وهو يحلم به . شادر خشب على شط النهر، وتأتى المراكب، ساعة زمن تفرغ حمولتها فى الشادر آخر راحة .

- أية مراكب ؟

- المراكب التى تأتى بالخشب .

- ومن ينقل الآن خشب المراكب، وعربات النقل؟ والقطار ؟

- صحيح . القطار . ركبته مرتين .

- بدأنا نخرف . وشادر منعم هناك على شط النهر من

سنين .

- يا ساتر على لسانك . الله يرحمها . كانت تقول إن لك لسان

بعزرة .

- من ؟

- غنمة . لسان غنمة .

- ومن قالت ؟

- أمك .

- أمى لا تقولها .

صيرير خشب السرير وكأنه الجد تحرك بعنف فى رقدته، أنظر

من فوق درابزين السلم، ألمحه متربعا على السرير ملتفتا ناحية الباب،

يقول محتدا :

- ليست أمى من تقولها .

- ولم لا تقولها ؟

- انت عارف من يقولها .

- عارف أيه ؟ قصدك زينب ؟

- هى أو غيرها . واسكت .

- زينب !

- فضها سيرة . خلى الليلة تعدى على خير .

ويأتى صوت من البيت الثانى وكأنه باب يفتح، يقول الجد

الكبير :

- عاجبك ؟ ابنك صحا .

- أنا برضه اللي صحيته .

ويسود الصمت، الجد وكان قد دلى ساقيه من فوق السرير عاد ورفعهما .

وكننا بحجرة الجد الكبير أثناء النهار، واشتبك هو والجد بالكلام التفت الجد الكبير ناحيتنا غاضبا :

- وأنتما، ماذا تفعلان هنا ؟

اتجهنا ناحية الباب، أشار لى فى حدة :

- تعال . أه أنت . اذهب إليه . لا تخف منه . اذهب . افتح بابه وقل له فى وجهه من سرق هدمومه وهو يستحم فى النهر . العجل . سرقوا هدمومه . وكان أكبر منك بسنتين . اذهب ، قل له .

زراعته التى يشير بها ناحيتى ترتعش فى شدة، فمه أيضا، والرداذ يتناثر منه، يقذف بساقيه خارج الفراش ثم يعيدهما :

- ويومها كان آخر انبساط . يضحك . يرفونه عاريا للبيت ويضحك .

- سبحانه يعطى من يشاء . أخذت عمرك وعمر غيرك .

- وأمه..

- لا تأتى بسيرة أمى .

- وأمه تغطيه بطرحتها وتخفيه فى حضنها، خائفة عليه من الحسد .

- هبل . والله هبل . لن أزد عليك .

وجاءت لحظة غفل فيها الجد الكبير عنا، وانطلقنا من الباب .

لا أحس بأبى حين يكون بالبيت، يتحرك كشبح، يفاجئنى ظهوره، وأسأله فى دهشة متى جاء ؟ أو متى صبحا من النوم ؟ . يرمقنى بنظرة فائرة ويمضى .

مواعيده دقيقة تحفظها أمى، وجعلتنى بإصرارها وملاحقتها أعرفها، لا يجتمعنا الفطور، نخرج أنا وأخى إلى المدرسة وهو ما يزال فى الفراش وباب الحجرة مغلق حتى لا تقلقه أصواتنا، فى تلك اللحظات تتحدث أمى معنا بالإشارة، رغم ذلك كنا نفاجأ أحيانا بأبى واقفا بباب الحجرة ينظر إلينا غير غاضب، وتلومنا أمى بنظراتها ثم تنصرف عنا لتسأله إن كان يريد فطوره الآن ؟

قبل موعد غدائه تغادر أمى قعدة النسوان بالحوش إلى البيت الثانى وتغلق باب الوسط وراعها، تشطف نفسها وتغير ملابسها وتنتظر مجيء أبى جالسة على الكتبة، والطبيلية معدة على الحصير، يأخذ أبى قيلولته بعد الغذاء، ونكون عدنا من المدرسة، تخرجنا أمى من البيت، أو تغلق علينا باب حجرتنا، ترقد مع أبى حتى يذهب فى النوم وتعود إلى الحوش .

مع بداية الليل يستعد أبى للخروج، يلبس البدلة كاملة، حتى حين يستقبل ضيوفا بالبيت، تنظف له أمى الكتفين بالفرشاة، ويوما قالت له :

- تتقصصك المنشة

يضحك أبى، تدور حوله والفرشاة بيدها، شعرها الكستنائى يتناثر فوق كتفها، وعندما تنحنى لتصل إلى البنطلون كان يسقط على وجهها، تزيحه جانبا بيدها . قالت :

- صحيح . لم لا تمسك واحدة ؟

- لا تعجبني .

- مع أن شكلها جميل .

تتبعه حتى الباب، ثم تعود لتجلس على الكنبه، تأتيها صاحباتها من البيوت الكبيرة في البلده، ملتفات في الملامت، يصحب الواحدة منهن غلام كبير يتركها لدى فتح الباب، ويعود ليأخذها مناديا اسمه بعد أن يدق الباب .

كن يعرفن موعد عودة أبي، ويغادرن قبل مجيئه، حين يتأخر مرافق واحدة منهن كنت أقوم بتوصيلها، وعادة ما نلتقى به في الطريق قادما إليها .

أبي شديد النحول، محنى الكتفين، كانت النسوة في الحوش يقلن إنه أخذ من أمه _ الجدة زينب _ قسمت وجهها الرقيقة المرهفة، وعينيها عميقتي السواد، وحتى لمعتها، وأهدابها الطويلة، وكنت أسمع أنه صاحب مرض من صغره، تنتابه نوبات قيء ووخة منذ كان في العاشرة .

تقول أمي : وسبحان الله . الاثنان . جدك وأبوك، تربيا بعيدا عن البيت، جدك عند أهل أمه، وأبوك بعده بسنين طويلة عند أهل أمه أيضا .

وتقول متعجبة إنها لم تنتبه لهذا التشابه في حياتهما عندما حك لها النسوان في الحوش، الآن فقط انتبهت وهي تستعيد ما قلته .

- واحدة تقول إن جدك الكبير كان يزور جدك شاكرا في صغره

عند أهل أمه، وواحدة تقول إنه عمره ما زاره ولا قرب من بيتهم . أهل جدتك الكبيرة فهيمة لا يحبون جدك كامل . يكرهونه، وأنت عارف السبب . ووصلت كراهيتهم أن أى واحد منهم كان يترك المكان الذى يتصادف أن يكون به جدك كامل، وحتى لو تقابلا فى شارع . كل واحد فى حاله وكأنه ما شاف الثانى، أه . لا أصدق أن جدك كامل، ولا هى طبعه أن يذهب إلى بيتهم ليرى جدك شاكرا . وكان مشغول طول اليوم . جدك كامل . لا أحد يراه لأيام طويلة . وكان جدك شاكرا يأتى للحارة من يوم للثانى، يحوم حول البيت المغلق، يحاول أن يدفع الباب والشبابيك ولا تستجيب له، وماذا كان يريد من البيت . الله أعلم . البيت خرابه، لا شىء به يؤكل، حتى الزير والقلل نشفت واخضرت، والتراب فى الحوش والحجرات أكوام، ويأتى جدك كامل، يبات الليلة ويمشى، يخيب بالأيام ويأتى لليلة ويمشى . هو الذى اعتاد النوم فى الخلاء تحت الشجر ما كانت تضايقه ليلة بين الفئران فى البيت، يغير ما يلبسه، ويرمى ببجعة هدمه المتسخة لواحدة من الجيران تغسلها عندها، ما كان ليشعر بحرج معهن وقد رأهن مئات المرات وعرفهن بالاسم حين كن يتجمعن فى حوش البيت مع امرأته جدتك فهيمة . ورغم كثرة ما يملك ظل هو كامل الذى عرفوه حين كان على قد حاله، يكون قادما فى الليل وعائلة من جيرانه تتناول عشاها على المصطبة، ويدعونه لمشاركتهم، يتمهل متسانلا عما ياكلون ؟ ويقولون : بانجان مقلى . أو ملوخية .

ويصعد المصطبة إليهم مغمغما : آه والله . لم أذقها من شهر .

يقضى الجد شاكر سحابة النهار أمام البيت المغلق يلعب مع أصحابه القدامى من الأولاد ويأكل معهم عندما يأكلون ثم يمضى . ومرات يلتقيان . جدك كامل يمشى ودماغه مشغولة بألف حاجة ، مفاجأ بمن يسير بجواره أو يقف جنبه وهو يفتح الباب، ينظر إليه لحظات شاردا ثم يقول :

- آه . جنت .

ويدخلان البيت، لا يتحمل جدك شاكر البقاء أكثر من ساعة زمن، لا يعرف أحد ماذا يفعل فيها، ولا ما إذا كان يحكى شيئا لجدك كامل، ثم يخرج منطلقا إلى بيت أهل أمه، ظل هناك حتى بلغ العشرين، وجاء قبل زواجه بشهور حين أعطاه جدك كامل وأبور الطحين ليشرف عليه ، وكان يريد إعطاه المناحل أيضا وجدك شاكر رفض - ضحكت - يقولون إنه صاح فى غضب :

- النحل ؟ أروح للنحل ؟

حين كان أبوك يتذكرها يموت من الضحك، يقول إن جدك شاكر لا يخاف من شيء فى الدنيا قدر ما يخاف من الدبور والنحل، يقفز هلعا كلما سمع طنينها بجواره . هو الذى أشرف على تجديد البيت لزواجه، وبعدها استقر جدك كامل معهما فى البيت .

نفس الحكاية مع أبيك، غير انه ذهب إلى أهل أمه وهو أصغر سنا من جدك شاكر حين ذهب ، كان فى عامه الثانى ، جدك شاكر لم

يزده أبدا، وكان هو أيضا يأتى ليحوم حول البيت فى النهار، وحين يقولون له إن أباه نائم بالداخل يظل بعيدا عنه، يلعب مع الأولاد قليلا ثم يمضى، صحته لا تساعد على اللعب طويلا، وأحيانا يقلق عليه أهل أمه فيرسلون من يعود به، لا يدخل البيت إلا فى المرات التى يظهر فيها جدك كامل، أبوك نفسه لا يعرف السبب . حين سألته قال إنه لا يتذكر، وربما كما قال إن جدك شاكر بطبعه كان متجهما ولا يرحب به حين يراه، جدك كامل لا يكف عن الذهاب لرؤية أبيك، يأخذها أمامه على الحصان فى جولاته بين الغيطان، ومرات يأتى به لبيت معه فى فراشه، يقول أبوك إنه كان يفرح بالأوقات التى يقضيها مع جدك كامل رغم وجهه الجامد الذى لا يكاد يبتسم، ويده الخشنة التى يتحسس بها هديه، يتمدد فى حضنه، وما أن ينتهى من حديثه الأولى حتى يكون أبوك راح فى النوم .

أبوك كان متعلقا بجدك كامل، ينتظر مجيئه عند أهل أمه، وحين يتأخر أياما يأتى إلى البيت للبحث عنه، يلعب مع الأولاد قليلا ويعود . يوما انطلق يبحث عن جدك كامل وسط الغيطان وتاه، تأخر الوقت، وخرج أهل أمه يسألون عنه، وكان هناك من أبلغ جدك كامل، انطلق بحصانه كالمجنون .

يحكى أبوك ضاحكا، يقول إنه رقد فى ظل شجرة بالمصلى وأخذها النعاس، كان يعرف ان جدك كامل سيأتى إليه، فكثيرا ما استراحا فى المصلى أثناء تجوالهما . وعندما أراد أهل أمه ان يمنعه من الخروج تصدى لهم جدك كامل :

"اتركوه . كل منا يفهم الآخر

أحيانا يعود جدك شاكر مبكرا إلى البيت، ويكون أبوك مع جدك كامل في حجرته وقد أضاء المصباح وأشعلا قوالح في الموقد يشويان عليها "أبو فروة" التي يحبها أبوك ويحتفظ بها الجد كامل له في ربطة بالدولاب، كل مرة يدخل أبوك الحجرة يسحب المقعد إلى الدولاب، وينكش باحثا في الرف، وكان يفاجأ أحيانا بأشياء أخرى مع أبي فروة. ملابس ملون . عسلية.

يلتفتان على صرير باب الحجرة، ويريان الجد شاكر واقفا ينظر إليهما، ينحنى ملتقيا حبة أبو فروة من الموقد، ويسأل أباك :

- تحبها ؟

ويهز رأسه خفيفا، وينظر هنا وهناك ويغادر الحجرة، بعدها بقليل يسمعانه يفتح باب البيت خارجا .

عندما أنهى أبوك دراسته الثانوية أخرجه جدك كامل من التعليم، قال إنه يريد من يساعده، وجاء به ليقيم معه، وعاش الثلاثة في البيت بدون واحدة ترعاهم حتى جئت أنا إليهم، كانوا يعتمدون على خدمات النسوة من الجيران .

أسأل أمي : وأبي . أين كان ينام ؟

- كل واحد كانت له حجرته . لم يكن هناك أيامها حجرة الواجن ولا حجرة خزين .

ما لم تحك أمي التقطته أذني في صباي من ثرثرة النسوة في الحوش، كن يحكين ويضحكن، وتضحك أمي، وتلتفت لترى إن كنت منتبها إليهن .

حجرة الجد شاكر كانت بجوار الباب الخارجي، ومرات يعود في وقت متأخر من الليل برفقة واحدة ملتفة بملاءة من رأسها لقدميها، يفتح الباب ويدخل وهي وراءه، في هذا الوقت تكون الحارة اسكت هس، والجد كامل وأبي في عز النوم، ويتصافد أن تلحمها واحدة من الجيران أيقظتها حبسة بول، أو صعدت للسطح هربا من الحر، وسمعت هسوت مشيهما في الحارة أو صوت الباب يفتح، واسترقت النظر، لتهامس بما رأته مع جارئاتها ويسكتن . الجد كامل له معزة كبيرة في القوسين، ولا يردن للحكاية أن تصل إلى سمعه، يعلم الله ما سيحدث، والجد شاكر ماذا ينتظرن منه غير ذلك ؟ يكفي أنه لم يفعلها أبدا مع واحدة من الحارة، أو حتى الحارات القريبة، عنده وابور الطحين الذي يشرف عليه، وحوله النسوان أشكال وألوان، يأتي من بلاد مجاورة أو من ضواحي البلدة منهن التنظيفة وغير التنظيفة، والعمال معه في الوابور قادرون على القيام باللازم . هن لم يرين واحدة منهن، غير أن الواحدة التي تبيت خارج بيتها، يعني، ولا داعي للكلام . على الأقل واحدة بلا رجل أو حاكم يحكمها .

تتسلل المرأة في البكور، وتظن أن لا أحد رآها، ويكون الجد كامل وأبي سبقاها بقليل قاصدين الغيطان . حتى كانت مرة، جاء الجد وواحدة . صوتها المرتفع أيقظ الكثيرين ومنهم جدى كامل وأبي، ظل كل منهما في حجرته لا يرغب في التدخل حتى تمر الليلة على خير، وكانا يملآن أن ينهى الجد الموقف بعد ارتفاع صوتهما، المرأة تقول كلاما لا تقوله واحدة، وصوتها به خشونة .

يقول الجد شاكر : رائحتك . اشطفى نفسك .

- آه . الآن تقول رائحتك . وأين الماء ؟

- عندك القلعة .

- صب على .

- صبى على نفسك .

صمت، ثم صوت المرأة :

- الراححة وراحت . ساكت ليه ؟

- صبرك بالله .

- طيب . صبرت .

صمت . المرأة فيما يشبه الزمجرة والصياح :

- وأخرتها . يدك توجعنى . أعطنى فلوسى وأمشى .

- انتظرى للفجر .

- ولا دقيقة .

- لن تجدى ما تركيبه . لا سيارة ولا قطار .

- أية سيارة نقل . لن يرفض سائقها . على الأقل لن يدارى

خبينه ويقول رائحتك .

صمت، ثم صياحها :

- جنينه ونصف ؟

- اتفقنا على ..

- آه . كان قبل القلعة . واشطفى . ويدك التى هرست صدرى

يطنى .

الجد كامل يسعل ويدق الباب خفيفا، أبى خرج أيضا من حجرته

ويقف خلفه بخطوة، المرأة - وربما كانت بجوار الباب - فتحتة بسرعة

تقف أمامهما عارية . تضحك :

- ثلاثة ؟

تستدير لجدى شاكر :

- وتقول جنينه ونصف يا مفترى ؟ ومن غيركم فى البيت ؟

تطل برأسها خارج الباب، تنتظر شمالا ويمينا، تتحسس بيدها

صدر الجد كامل، تقول فى دلال :

- أنت مجان . رجل ولا كل الرجال .

وتداعب خد أبى المذهول بإصبعها :

- وانت كمان مجان . قمر . حلاوتك تدوخ .

وتقف جانبا كأنما تدعوها للدخول . ينظر أبى من فوق كتف

الجد كامل إلى داخل الحجرة، الجد شاكر بملابسه الداخلية يجلس

على حافة السرير مدليا ساقيه .

الجد كامل يمد يده بورقة بخمسة جنيهات :

- خذى واخرجى .

النبرة الحازمة فى صوته، تبتسم المرأة له وتستدير للداخل،

تلتقط قطع ملابسها المتناثرة . تصيح بالجد شاكر :

- ناولنى الستيان . وراك على السرير .

بشائر الفجر فى الأفق، تخطو المرأة فوق العتبة إلى خارج

البيت .

كانت عجفاء، تلبس كنساء المدن، جيبة فصيره وحذاء بكعب

عال، والألوان كثيفة على وجهها، تلمع البعض من الجيران الذين تواروا

بمداخل البيوت لدى خروجها، بيدها طرحة كادت تلفها حول رأسها

ووجهها :

- ويقول لى خذى الطرحة دى تدارى بها رأسك ووجهك . قال

يعنى . بلا خيبة .

قذفت بالطرحة نحو أقرب الجيران إليها :

- خذوا . اعطوها له .

أنتبه وأنا فى حجرتى إلى صوت أبى تغلب عليه حشرجة البكاء،

يشكو لأمى من فضيحة جديدة للجد شاكر سمع بها الليلة، أمى

تهدئه. تقول إن الأمر لا يستحق، الناس لم تعد تهتم بما يفعله الجد كما

فى الماضى .

يقول أبى إنه لا يتحمل نظراتهم إليه، ولا يستطيع أن ينظر فى

جوههم حتى وهو يحييهم . يهدأ فى النهاية، وتعمل له أمى عصير

الليمون الذى يحبه، وينام .

كان يشارك فى العديد من المجالس، منها المجلس المحلى،

مجلس المدينة، الجمعية الزراعية، ويوم يقصد المدينة لأحد الاجتماعات

تعد له أمى حقيبة صغيرة بها غيار وجلباب للنوم وقميص، ويستأجر

عربة تقف بانتظاره أمام البيت، كان السائق يسمح لى باستخدام

ألة التنبيه .

وكان الكثير من الأهالى يحتكمون إليه فى خصوصاتهم . فى

مثل هذه الليالى تعد أمى الصلاة الكبيرة لاستقبالهم، ويبدو أبى

وقد استعاد حيويته، يتألق بشرا، يتحرك هنا وهناك، ويطل علينا أنا

وأخى فى حجرتنا، يقرأ عناوين بعض الكتب، ويسوى وضعها على

المكتب . ويقول لى :

- فكرنى أشرح لك موقعة التل الكبير .

- وما هي ؟

- سأقول لك وقتها .

يشير لى أن أفتح الباب حين يأتى المتخاصمون . كنت أقودهم إلى الصالة الكبيرة، وأحتمل ما يقولونه لى من كلمات المدبح، وأرى أبى متأهبا فى الصالة الصغيرة، وقد وضع عباءة بنية مطرزة الحواف فوق كتفيه، ودس قدميه فى خف من الجلد . كان يتصدر القعدة والمسبحة فى يده، أحمل لهم الشاى، ثم القهوة، وأحيانا أطباق مهلبية . أمى متربعة على الكنبه فى الصالة الصغيرة تنتظر أن يطلب شيئا، كان يعود فى النهاية بشوشا ضاحكا، وتسأله أمى التى سمعت كل ما قيل :

- خير ؟

- خير إن شاء الله . أما حكاية . إنما غريب

ويحكيتها لها حين تضمهما الحجرة .

أسمع الجد كامل ينادى أبى . يكون الوقت ليلا، وأبى يوشك ان يدخل حجرته، أحيانا يسمح لى بمرافقته، يفتح باب الوسط، نسير فى المر على ضوء المصباح الصغير، حجرة الجد شاكر مظلمة، الجد كأمال فى الفراش، ساقاه ممدودتان يدعهما . يقعد أبى بجواره . يقول الجد كامل :

- زمن طويل لا أراك .

- مشاغل يا جدى .

- كان الله فى العون .

ويقول أبى إن ما يلبسه الجد خفيف واللبل بارد . فلم لا يرتدى جلبابه ؟

يشير الجد كامل بإصبعه دون أن يلتفت إلى وعاء النار المطفأة فى ركن الحجرة :

- تكفى .

تستقر عيناه قليلا على وجه أبى، يسأله عن قطع أرض فى الطرف الشرقى، يقول إنها خطرت على باله فى الصباح، يذكر إنها كانت مالحة .

يبتسم أبى : أه . كانت . أخذت ما يكفيها من الماء . زرعتها
أرزا .

- خير ما فعلت .

يطرق الجد كامل ويصمت، يطول صمته ثم يقول فجأة :

- وعبد العاطى ؟ تراه ؟

- أراه . كل يومين ثلاثة .

- لو أنه سمع كلامى .

يعود إلى صمته . أبى لا يسأل كأنما اعتاد طريقتة فى الكلام، أحيانا يكمل الجد كامل كلامه وأحيانا لا يكمل . يهز رأسه من حين لآخر، مستغرقا فى صمته . يتحنح أبى ويقف . يلتفت الجد كامل إلينا، وكأنما فوجئ بوجودى، يمد يده نحوى، أسلمه وجهى، يداعبه قليلا ويتركنى .

يغمغم أبى فى عودتنا : " لا يفيق تماما إلا مع جدك شاكر

أتصفح أوراق العائلة، كانت فى ظرف أصفر كبير، اهترأت جوانبه ودكن لونه . عرق الأيدى التى تداولته، أحتفظ به كما هو، وضعتة فى ظرف بلاستيك لحمايته .

لا أجد صوراً لأفراد العائلة، ربما لم يحتاجوا إليها، الجد كامل فقط، صورة له فى شبابه، متآكلة الأطراف، أشبه بالصورة التى تلتقط على رصيف مبنى الشرطة أو المحكمة . بدا فى الصورة متجهماً الوجه وعيناه مفتوحتان على آخرهما، وتلفيعة كالحة تحيط برقبتة، نسل طرفاها، وانزلقت بعض خيوطها على صدر الجلباب، ذقنه غير حليق، وشاربه متهدل .

بصمة الجد كامل على عدد من الصكوك . ملكية الأرض . البيت . وابور الطحين، إبهامه الضخم، أتأمل البصمة، وأتذكر يده المعروقة التى جفت وتقوست أصابعها حين كان يضعها على رأسى .

لا أوراق تخص الجد شاكر فى الظرف غير قسيمة زواجه، لم يرغب على ما يبدو أن يخلف وراءه أثراً، توقيعه على القسيمة الذى كان يحفظ رسمه ولا يكتب غيره .

أوراق كثيرة بخط أبي وتوقيعه، عقود شراء وبيع، إيصالات، كمبيالات، كعوب دفاتر شيكات، خطه الجميل الواضح، المائل قليلا، ثمة خواطر كان على ما يبدو يكتبها من حين لآخر على ورق أزرق ناعم، أغلبها عن هيامه بأمی، وربما أراد أن يجرب الكتابة وبدأ بأمی أقرب الناس إليه :

أنت واحتى التى تأوينى .

الظل الذى يرفرف على رقدتى .

نهر حنان يغمرنى .

أنت شمسى وقمرى .

وردتى البيضاء .

عندما قرأتها لأمی أول مرة ندت عينها بالدموع، وسألتنى عن معنى كلمة واحة .

قالت من خلال بكائها :

- ولا أسمعها منه . ولا كان يبان عليه . لم يقل غير الوردية البيضاء .

بعدها كانت تطلب منى أن أعيد قراءتها .

عندما تولى أبى الأمر فتح العديد من الدفاتر، كل محصول له قسم خاص فى الدفتر، وكل صنف من الفاكهة وكل نوع من البهائم، وكان هناك عدد من الصفحات لبند الهدايا، دون بها عدد أقفاص الفاكهة المهداة وتاريخ إرسالها وأسماء المرسل إليهم من مسئولين فى المدينة أو المركز .

وأجرى تغييرا بالزربية، وكانت بجوار وابور الطحين، وملحق بها غرفة كبيرة يحفظون داخلها العدد والآلات التى تم استبدالها، كانوا يلجأون إليها من حين لآخر بحثا عن قطع غيار .

اقتطع أبى جانبا من الزربية، وأشاد مبنى من حجرتين وصالة للموظفين الذين يسكون الدفاتر، وخصص لهم ركوبتين للمرور على الغيطان، وأطلق اسم " تقتيش كامل الزراعى " على أملاك الجد الكبير .

كان أبى يذهب إلى الإدارة - كما يسميها - مرة كل يومين أو ثلاثة، يجلس مع الموظفين ساعة زمن ويمضى، وقل ذهابه بمرور الوقت، اكتفى بمرة فى الشهر، وتفترغ بذلك لأعبائه العامة وكان متحمسا لها وتأخذ كثيرا من وقته .

قال لى ضاحكا : " كل ما فى دماغ جدك كامل أفرغناه على الورق " .

كان ذلك بعد شهور من إعداد الدفاتر وحصر ملكية الجد كامل، ومن يوم لآخر يتأكد لأبى أنه لم يفرغ كل ما فى رأسه :

- يظهر أنه ما يزال بها بقية من الأشياء .

كان الموظفون معه يفاجأون بأملاك للجد كامل لا يعرفون عنها شيئا . العائد منها يأخذ طريقه إليهم ، يثبتونه فى الدفاتر تحت بند " للبحث والتقصى " .

ويلجأ أبى إليه، يحك جدى كامل ذقنه الخشن بأظافره ويقول :

- أه . عندى فيم تريدها ؟

- نسأل عن ورقة الشراء . تاريخها . أى حاجة .

- ستجدها .

- أين ؟

- ابحث . هنا . هناك .

ويوما قصد أبى حجرة الجد كامل يرافقه موظف من الإدارة يحمل تحت ابطه دفترا ضخما بجلدة سوداء لامعة، الدفتر يجذب النظر، ويوحى بخطورة الأمر . الجد كامل فى فراشه يتناول كوبا من عصير الطماطم التى اشتاق إليها، وكانت أمى أرسلتني به وبقيت معه حتى ينتهى منه . يرشفه متمهلا مستمتعا بمذاقه، حين رأى أبى والموظف توقف وظل الكوب فى يده، أشار للموظف مستفهما . قال أبى:

- الأستاذ عبد العزيز . موظف بالإدارة .

- أى إدارة ؟

- إدارة التفتيش . أملاكك .

الجد كامل يحدق فى وجه أبى . يغمغم فى صوت خافت :

- تفتيش . إدارة .

- حصرتنا كل أملاكك وقيدناها فى الدفاتر .

- كلها فى هذا الدفتر ؟

- توجد دفاتر أخرى .

جلس أبى جانبه على الفراش، والموظف على المقعد والدفتر على

أخذه، عينا الجد كامل لا تفارقان الدفتر . قال أبى :

- جئنا نستفسر منك عن شىء . .

- قل له يبعد الدفتر .

- يبعده ؟ كنت أسأل عن ...

أغمض جدى كامل عينيه : لن أخبرك بشىء قبل أن

يبعده .

التفت أبى إلى الموظف الذى أخذته المفاجأة وراح

يحدق ساكنا نحو الجد كامل، ثم انتبه وركن الدفتر إلى ساقى

المقعد .

قال أبى : خلاص . أبعده .

فتح الجد كامل عينيه، واتجه بصره إلى ساقى المقعد، قال فى

صوت احتد قليلا :

- لم يبعده .

- وأين يضعه ؟

- فى الخارج .

- لكننا نريده . البيانات التى نسأل عنها مقيدة به .

نقل الجد كامل نظراته من واحد للأخر، ثم انصرف عنهما،

وراح يرشف عصير الطماطم .

أشار أبى للموظف الذى حمل الدفتر إلى خارج الحجرة وعاد .

قال أبى فى شىء من الضيق إن هناك ثلاث قطع من الأرض لم يعثر على أى أوراق لها .

الجد كامل يتأمل كوب العصير الفارغ فى يده :

- كل مرة تأتى وتقول ذلك ثم تعثر عليها .

أبى ينظر إليه صامتا، الجد كامل يبدو مشاكسا على غير العادة، وربما انتبه إلى ذلك، وفطن إلى وجود الموظف الغريب فى الحجرة، هو الحريص على كرامة حفيده حتى أمامنا، أطرق قليلا ثم سأل فى صوت هادىء :

- وأين هى الأرض ؟

وصف أبى مكانها ومساحة كل منها، الجد كامل ابتسم فى اطراقتة، وكان يقبض يده ويبسطها :

- آه . الأخوات الثلاث . كل منها نصف فدان . متجاورة . تفتح من جانب على الخلاء، الجوانب الأخرى تحيط بها أشجار كافور

تمتم الموظف : هى .

رمقه الجد كامل لحظة وعاد إلى اطراقتة :

- كنت أزرعها برسيميا .

قال الموظف ساحبا مقعده قليلا إلى الأمام :

- مزروعة الآن ذرة .

- كلما كانت تأتى فرصة أزرعها برسيميا . بعد أن تنبت، وطولها نصف شبر، الأحواض الثلاثة جنب بعضها . لا ترى غير البرسيم، النبتة الصغيرة . ترتعش . آه . أقل نسمة . وحتى من غير نسمة . من زعرها تخطف قلبك . لما يزيد طولها ولا أعرفها . كلها تميل ناحية واحدة، ثقيلة وثانمة على نفسها .

أبى والموظف يتبادلان النظرات . يسعل أبى ويقول :

- ما دمت تتذكرها ...

- آه . أتذكرها . من دون الأحواض الأخرى كنت أستلقى على الشطوط بينها وأروح فى النوم .

- وأين أوراق ملكيتها ؟

- ستجدها .

- بحثنا . لم نترك مكانا . الصندوق . درج الترابيزة، خلف الطوية فى الجدار . وجيوب هدموك القديمة .

- افنكرت .

انحنى يدعك ساقيه :

- آه . لم تكن من أراضى الإصلاح التى أخذتها من الميرى

كانت مزروعة . واشتريتها بزعتها . قمح، أول طرحة لها عندى . من عشرين أو خمسة وعشرين سنة . أولاد عبد الحميد . كانوا ثمانية ورثوها عن أبيهم . تخصصوا عند تقسيمها . ثمانية ويتخصصون بأعوها . رحمة عليه عبد الحميد . كان مثلى يحب أن يزرعها برسيميا

وأين ورقة الشراء ؟

- صحيح . أين ؟ ستجدها .

واستلقى في الفراش وأغمض عينيه

ظل أبي يبحث والموظفون، والجد كامل يقول حين يذهب أبى إليه

- ستجدها . الأوراق تختفى وتظهر .

لم يعثر عليها غير أم سالم .

كانت منحنية تضع صينية الغداء أمام الجد كامل، وأحست

بوجع في ظهرها، انثنت متائلة ولحت ما يشبه الثعبان يتدلى من فوق

الدولاب، صرخت . وجاء أبى - وكان يتأهب لقيولته - على صراخها،

واكتشف أن الثعبان لم يكن غير دكة لباس قديم للجد كامل، مغزولة من

صوف غنم بلون الثعابين ومبرومة مثلها .

ضحك الجد كامل حتى دمعت عيناه :

- ثعبان يا هبله .

قال أبى فى ضيق وكان متجها للباب :

- ومن رماه فوق الدولاب ؟

قال الجد كامل : هدم قديمة .

عاد أبى، وقف على المقعد، وسحب من فوق الدولاب

صديرى ولباس، كانا ملطخين بطين جاف من سنوات طويلة، وعثر فى

جيب الصديرى على ورقة شراء الأحواض الثلاثة ومعها مسمار

قلاووظ

قسيمة زواج الجد كامل عبد القادر . العمر عشرون عاما
الزوجة فهيمة متولى . العمر ستة عشر عاما، البيت القديم الذى ورثه
من أبيه وخمسة أفدنة، صكوك الملكية المهترئة، أوراق لصق كثيرة
يظهرها، أتذكرها تلك الفجوات بجدار الحوش، فى النصف القريب من
الباب الخارجى، مسامير ضخمة وحلقات حديدية، تربط بها البهائم
التي تبيت فى الحوش .

مثل كل النسوان فى الجارة تصحو فهيمة مع طلعة الفجر، تجمع
روث البهائم، تخلطه بالتبن، وتضعه فى طشت، ترفع السلم الخشبي
الذى يرقد فى الليل على جنبه، تسند طرفه للجدار وتصعد بالروث إلى
السطح، تصنع أقراص الجلة وتتركها لتجف .

يصحو الجد كامل ويجد الحوش نظيفا . البهائم الأربع أكلت
وشربت، وحمارته أيضا، يتناول فطوره ويمضى، لا شىء يشغل باله .
الأمور تجرى فى طريقها الذى اعتاده منذ كان يعيش مع أبيه،
والفدادين الخمسة تحقق له حياة مريحة ، تسمح له باستئجار عدد
من الأنفار فى مواسم الشغل، وشراء جلابين أو ثلاثة من الصوف
للخروج والزيارات . امرأته أيضا، وكان بائع الأقمشة يحط بقجته

فى شهرها السابع انتفخ بطنها أكثر مما اعتدن رؤيته، وكانت فى جلستها تسند ظهرها للجدار وتمد ساقيهها مفتوحتين، مستغرقة مع نفسها، وينادينها مرتين وثلاثا قبل أن تلتفت إليهن، انتفاخ بطنها وصفرة فخذيهما وهزالهما ليس بغريب عليهن، كثيرات منهن مررن بذلك ولم يزعجهن، غير أنها بخلافهن، عيشتها سهلة لا تعرف التعب، مثلها ويصحتها ربنا يستر . حين تتعرى فخذها البائستان فى قعدتها ولا تهتم بتغطيتهما تقوم واحدة منهن بسحب الجلباب فوقهما .

يوم الولادة أيقظت الحارة كلها بصراخها، وامتلا البيت بالنسوة. الرجال قعدوا خارج البيت بامتداد الجدار، طول الليل والداية تحاول معها . لفظته مع طلعة الفجر، كان ولدا سميها بحجم اثنين، حتى أن الداية شهقت وهى تسحبه . مرق أمه فى شدة فرقت كالميتة، جاؤها بطبيب من المركز فى نفس الصباح، رفق المولود فى فرشته شذرا قبل أن يستدير إلى الأم .

نهضت بعدها شديدة الهزال، وقلن إنها أيام وتسترد عافيتها، غير أن النظرة الفرزة لم تفارق عينيها، والذوخة التى تأتيها فجأة، تكاد تسقط من طولها إن لم يسعفها جدار قريب أو واحدة تكون بجوارها .

أقبل الرضيع على ثدييها فى نهم، ولبنها لا يكفيه، تتناوب امرأتان من الحواري المجاورة إرضاعه معها، حين ترى فهيمة الواحدة منهما والطفل فى حجرها تلوى بوزها وتختفى، لا تظهر إلا بعد أن تنتهى المرأة من إرضاعه، ومرات لحنها عندما تختفى منزوية بمدخل

الضحمة من فوق ظهره على عتبة بيتها، وتأتى النسوة إليه، من يردن الشراء أو الفرجة، كانت فهيمة توصيه بما تريد، طرح حرير، قماش مشجر، ملايات، ملابس داخلية - التى تحدثت عنها النسوة كثيرا فيما بعد أثناء قعدتهن مع أمى فى الحوش - كانت تشتريها جاهزة، لا تخطيها مثل الأخريات، نساء معدودات فى البلدة يستخدمن الجاهز، يقول لها التاجر :

- سأتيك من نفس الصنف الذى أحضره لامرأة الحاج بسيونى. تسمعين عنه ؟
- ومن لا يعرفه .
- تتعامل معى من خمس سنين .

وتكون عيناه التقطت مقاسات صدرها وعجيزتها، يقلن إن الجاهز كان يبرز استداراتها، غير أنها استدارات على قد حالها، الجاهز كان يحسنها قليلا . بنيتها الضعيفة لا تتحمل العمل طويلا، تستريح من وقت لآخر جنب الجدار ورأسها على يدها، الجد كامل لم يقص .
سىء، كانت قريبته، لولا ذلك كما يقلن لتزوج من واحدة .
تلجأ إليهن ليساعدها، وكن لا ينتظرن نداها، كما أتين بعد ذلك للجدة زينب، وكما تأتى بناتهن الآن لأمى .

حملت بعد عام من زواجها، وازدادت شحوبا على شحوب، وضعت حركتها، يعددن لها فرشاة طرية من القش لتقعد معهن فى الحوش .

الحجرة تعصر ثدييها الصغيرين وكفها المفتوحة تحت الحلمة لا تستقبل قطرة واحدة، وتبكي وتنهه وتقول إنها لن تعيش حتى تراه يصلب عوده .

تحمله على ذراعها أينما ذهب، لاتفارقه فى اليقظة أو النوم، الولد سمين أبيض يضحك لأى صوت حوله، تجلس به فى ركن الحوش تناغيه ويناغيه، عندما ينعس فى حجرها يتخشب جسدها، تكلمنا بالإشارة، وكانت تريد أن تثقب أذنه لتعلق بها حلقة معدن وصفها الشيخ الجمعة لتقيه من الحسد، ولم يمنعها غير كلامنا وما حكيناها لها عن سوابقه فى النصب على الناس، وإذا كان ولايد فحجاب تعلقه فى رقبتة . وقد كان، علقت له الحجاب .

عندما بدأ يحبو حبت معه، لمعة عينيها، شعرها الذى تنسى أن تمشطه، الولد يضحك وهى تضحك، تحنى رأسها تكاد تلامس الأرض، يحبوان الحوش بطوله ويعودان، يدوران حولنا، ويمران من بيننا، نجمع سيقاننا لنفسع لهما الطريق، ويختفيان فى الحجرات ويظهريان، صدر جلابيها انفتح على آخره بعد أن سقط الزرار من زحفيها، ننبهها، ولا تلتفت إلينا . ومرات يأتى زوجها فى النهار، أظنها مرة أو مرتين، نظرت إليه وشدته من طرف جلابيه، ركلها مزمرجا، سقطت على جنبها ضاحكة، ما كانت تبالي بغضبه أو ضيقه من لعبها الكثير مع الولد .

عندما بلغ الجد شاكر شهره السابع وراح يحبو مع أمه فى أنحاء البيت مطلقين أصواتا لحيوانات وطيور، ومقلدين بعض حركاتها تسلم الجد كامل صك استلاك مائة فدان من الأرض البور منهيها بذلك شهورا طويلة من التفكير .

وقف ساكنا غير قادر على الدهشة أو الفرح وقد تم تمر ببساطة شديدة جعلته يتشكك فى قيمة ما حصل عليه .

التفت بآه ينظر إلى المبنى الأصفر المتهاك، ونوافذه الكبيرة بقضبانها الحديدية الصدئة وخلفها تظهر رؤوس الموظفين منحنية فوق المكاتب .

سبع مرات جاء يستطلع المكان ويراه بعينه، حتى بعد أن استقر رأيه على شراء الأرض، يأتى إلى المبنى مؤجلا الشراء ليوم آخر . يسير فى طرقته الرئيسية يختلس النظر إلى الموظفين خلال الأبواب المفتوحة، ويتمهل أمام الحجرة التى بها الموظف المختص الذى سيقوم بإجراءات البيع، متأملا أصابع يديه تقلب أوراقا على المكتب، كان قد ذهب إليه من قبل ثلاث مرات . فى الأولى أجابه الموظف على ما يسأل عنه . الثمن . المساحة .

الموقع، في الثانية كانت نفس الأسئلة، وبعد أن أجابه الموظف عنها،
سأله :

- ألم تأت من قبل ؟

- أتي .

في المرة الثالثة استقبله الموظف فى لطف، وقيل أن يسأل الجد
كامل نفس أسئلته قال له الموظف :

- لا جديد . عندما تجهز بفلوسك تعال .

غير أنه استمر يذهب، مشدودا للمكان الذى سيعقد به صفقة
عمره، يلقي نظرة، ويشرب شايا عند ساعى المصلحة الذى يجلسه
فى ركن بطرقة صغيرة جانبية يتخذها لإعداد مشروبات للموظفين،
عادة ما يحمل له الجد كامل شيئا فى ذهابه، ذكر بط مذبوح أو
فروختين .

يقول له الساعى : ما أعرفه أن البعض يأتى ويشترى بالمتنين
فدان وأكثر . كل البلاد فى محيط المركز التى جفت بها مياه البحيرة
المالحة .

لا يكثر الجد كامل من سؤاله . هى مرة واحدة ولم يسأل
بعدها .

يأتى إلى الساعى ويقول : كنت قادما للمركز وقلت أمر
عليك .

ويقترح على الساعى فى إحدى المرات زراعة بعض أشجار

الليمون بالجانب الأيمن العارى من الظل .

- إن أردت أعزقها لك . راحة الليمون تبهج المكان .

ويقول الساعى إنه يوافق على أن أشجار الليمون أصلح شىء
للمكان، فلا مثيل لرائحتها، غير أن الأمر سيقضى تشكيل لجنة
ومحاضر ووجع دماغ هو فى غنى عنه .

ويوافق الجد كامل : صحيح . صحيح .

لا يدرى أحد من لغت نظره إلى الأرض البور . كانت موجودة
من سنين ومعروضة لمن يريد بها برخص التراب، ومن يملك المال فى
البلدة لا يسعى إليها أو يفكر فيها، كانوا يرون أن امتداد البلدة
الطبيعى سيظل رأسيا مع مجرى النهر . أراضي بور شاسعة لاتصل
إليها المياه، ولأمل أن تصل إليها، والنهر ينحنى ويمضى مبتعدا،
والترعة التى خصوا البلدة بها شقت من سنين، وجرت مياهها إلى
الناحية الأخرى وتناثر حولها عدد من الكفور، وبدا أن الأمر توقف عند
هذا الحد .

أتحيله وقد أخذت الفكرة تنمو فى رأسه، يركب حمارته ويمضى
إلى هناك، يخلف البيوت، والأرض المزروعة، والأشجار، ويقف محدقا
فى الخلاه، الأرض ممتدة إلى بعيد، لا يحتويها بصره، تتناثر بها
نباتات الصبار والشوك، مستندا بذراعه كعادته إلى رقبة حمارته، هو
الخبير بالأرض يعرف مدى صلاحيتها، أما المياه فلا يقدر عليها أحد .
وربما فى وقفته تلك حسبها ووجد أنه بثمن فدان ونصف من أرضه
يستطيع أن يشتري مائة فدان .

أتخيل أن رقم المائة هو الذى كان يدفعه إلى معاودة التفكير،
والمياه فى علم الغيب، قد تأتى وقد لا تأتى، وقبل أن يشقوا التربة من
سنين، واغتنى بجريانها من اغتنى، هل كان هناك من يقول إن التربة
ستأتى ذات يوم .

فى لحظة كما يقال سرقة السكين وباع الفدان ونصف، هو
الذى كان مترددا لوقت طويل بدا كالمحموم يتعجل إنهاء الشراء،
ما أن تسلم فلوسه حتى ذهب إلى المبنى الأصفر، وخرج والصك فى
يده .

وقف ساكنا وقد انتابته الهواجس، المبنى الأصفر تغمره
الشمس، الواجهة تساقط طلاؤها فى أماكن متفرقة بدت كالبقع، فدان
ونصف من أخضب الأراضى تروح فى غمضة عين مقابل لاشيء . مائة
فدان لاقيمة لها، الكثيرون يصرفون النظر عنها، وهو؟ لو أنه استشار
أحدا .

كان فى تلك الحالة من البلادة والحيرة حين وصل إلى البيت،
ورأى امرأته تحبو مهللة مع ابنه فى الحوش وتجذبه من جلبابه
فرفسها .

انتشر خبر بيعه الفدان ونصف، ولم يعرف أحد بشرائه
المائة فدان بعد أن تكتم أمره، وكأنه عار لحق به، كان صموتا
لا يرد على أحد، وفى البيت صار متجهما يغلُق على نفسه باب
الحجرة، ولا يكلم امرأته . حتى جاء يوم وقفت أمامه مشتعلة

النظرات تلم شعرها المنكوش بيدها . سألته فى صوت مبحوح وكان
راقدا على الكتبة :

- بع الفدان ونص يا كامل ؟

رمقها صامتا، أغلقت فتحة صدرها وازداد اشتعال عينها
ورعشة غضب بوجهها الهزيل الشاحب :

- رد يا كامل . بع الفدان ونص ؟

نالتها كف عنيفة ذهبت بنصف سمعها إلى الأبد، وهوت من
طولها دون صوت جنب الجدار .

حين عاد الجد كامل فى الليل لم يجدها . ولم يسأل .

النسوة من الجيران تجنبن الذهاب إلى البيت فى غيابها،
عندما يرونها قادمة يسكنن ويلتفتن إلى الناحية الأخرى حتى
يبتعد .

غابت فهيمة شهرا عند أهلها وعادت . رأى الجد كامل لدى
رجوعه فى الليل البيت نظيفا ومرتبًا، وعشاءه على الطبلية مغطى
بجلباب، كانت فى الحجرة الأخرى مع الولد، همسهما ومناغتهما
الخافتة خلال الباب الموارب، تناول عشاءه ودخل حجرته، سمعها حين
خرجت من الحجرة والولاد على ذراعها تناغيه، جمعت الأطباق ورفعت
الطبلية وعادت إلى حجرتها .

حين يكلمها تتوقف ساكنة، تدير أذنها السليمة ناحيته وتميل
بوجهها خفيفا مرهفة السمع - تلك الحركة التى لازمتهما بعد ذلك -

كان قد عرف بعاهتها من أخيها عندما التقى به فى السوق وعاتبه بعدها كان يكلمها وعيناه فى ناحية أخرى، مختصرا كلامه قدر ما يستطيع، تنصت إليه وتمضى دون كلمة . لم يقترب منها، هى أيضا لم تسع إليه . ما أن يغادر البيت حتى يذهب عنها انطاؤها ، تصفق مهللة لابنها الذى يهلهل أيضا ملوحا بيديه، وينطلقان فى حبوهما .

حين تجاوز الجد شاكر عامه الثانى بثلاثة شهور بدت فى الأفق
بشائر تغير ما .

كان ما يزال يتعثر فى خطواته وسط صيحات أمه وحماسها، ويرجع تأخره فى المشى - كما قالت النسوة - إلى سمنته، وأمه التى لم تكن تتركه يرهق نفسه فى محاولات السير، تتبعه مقرفة، تنقل قدميها مع قدميه، ويدها متاهبتان لتمسكا به قبل أن يهوى .

يأتى الجد كامل أحيانا على غير موعد باحثا عن شىء نسيه، تسكت النسوة، أيديهن مستمرة فى العمل . عجيز . غسيل . طيبخ، يرسلن تحذيرا لفهيمة، سعة قوية، أو نداء حين لا تلتفت إليهن، تتوقف فهيمة ومعها الولد، تهمد حركتهما، ينظران إلى الجد كامل الذى يتمهل قليلا مغمغا بكلمة أو كلمتين، فهيمة فى قرافتها توجه أذنها السليمة ناحيته، وذراعها تحتوى الولد . فمها المغلق فى شدة، وتكشيرة على جبهتها، ونظراتها الزائغة هنا وهناك، تنتظر بفارغ الصبر ابتعاده، يفلت صوت رغما عنها وكأنها تقىء، يزمجر الجد كامل مبتعدا .

فى هذه الأيام التقى بالحاج بيومى، الجد كامل كان غائضا لركبتيه بمياه إحدى القنوات ينظف قاعها مما تراكم من قش وأوراق

الشجر، توقفت بغلة الحاج بيومي بجواره على السكة، العبادة السوداء
تهدل على كتفيه قال :

- يا كامل . من نصحك بشرائها ؟

وأشار بعصاه فى اتجاه الأرض البور، واعتدل الجد كامل ونظر
فى نفس الاتجاه :

- من أخبرك ؟

- عرفت فى المصلحة . أنا أيضا أشتريت، مائتى فدان، كنت
أريد أرضك الأقرب للبلدة، فأخبرونى أنك أخذتها .

شطف الجد كامل زراعيه وخرج من القناة، سار بجوار بغلة
الحاج . قال :

- ومتى اشتريت ؟

- من شهرين . وأنت . من نصحك بالشراء ؟

- لا تستحق نصحا .

- تخفى عنى ؟

- كما أقول لك . جاءت وحدها .

- أربعة آخرون اشتروا قبلك . تعرفهم ؟

- أبدا .

- يبدو أنهم أغراب . لمّ لا تضع ركانز حول أرضك ؟

- ومن يطمع فيها ؟

ضحك الحاج بيومي : لا تبدو فرحا بها يا كامل ؟

- ما حصل حصل يا حاج

ضحك الحاج مرة أخرى : طيب . يومين ثلاثة وتغير

كلامك .

ونخس بغلته فانطلقت، أسرع الجد كامل وألحق به .

كان يحكى لأبى تفاصيل هذا اللقاء مستمتعا :

- يوم لا أنساه أبدا . الحاج بيومي يعرف الكثير ولا يقول .

ما كان ليشتري الأرض إلا بعد أن عرف واطمان . أصحابه فى

العاصمة يذهب إليهم من وقت لآخر . والبعض منهم يزورونه فيولم

لهم، يذبح الخروف أو الديك الرومى . وكان يقال إن له قريبا يعمل فى

الحرس الملكى، والحاج لا ينفى ولا يؤكد . ينظر إلى وجهى ويضحك .

يرانى والعرق يصب منى ممسكا برقبة البغلة، وأقول له لن أتركك حتى

تخبرنى، ويضحك . يقول :

"يا كامل . هو أسبوع بالتمام . وتشوف . وسيب البغلة "

وأنا لا أسيب البغلة . ذراعى ماتت على رقيبتها .

يقول : « دى أسرار يا كامل . عندى ميعاد يا كامل . يا كامل

يا كامل . »

وأنا ولا هنا . فبن وفبن وقال :

"طيب يا سيدي . الترععة خلاص . الحفر يبدأ بعد

أسبوع . "

قالها وفتح الشمسية ومضى، وأنا واقف فى مكانى أنظر إليه ولا أصدق ما قاله .

كان عمر الجد شاكر أربعة أعوام حين بدأ يخرج إلى الشارع، ثمة محاولات قبل ذلك غير أنه لا يبتعد أكثر من خطوتين عن عتبة البيت، وعندما يفزعه صوت ما يلقي بنفسه فى حضن أمه التى ترتبع على العتبة وتفتح ذراعها له، وكانت أحيانا تصدر أصواتا تخيفه فرحة بارتماؤه على صدرها .

ظل أكثر من شهرين مكتفيا بالاستلقاء فى حجرها معريا فخذيه السمينتين وهزهما، وعيناه تتابعان الأولاد فى لعبهم بالحارة، وتناديهم فهيمة ليلعبوا بالقرب من العتبة، ابنها فى حجرها يتحمس ويكركر ضاحكا، وحين يقع ولد من الأولاد كانا يصيحان معا مهللين . ويضيق الأولاد أخيرا من استمرارهم فى هذا اللعب، ويحاولون الابتعاد، وتغريهم فهيمة بحبات من التمر والملبس، يتجمعون أمامها، ويلاعبيهم الجد وهو فى حجرها، يلكمهم فى صدورهم ويشد شعرهم، يحنى الولد منهم رأسه منجذبا لليد مخففا بذلك الألم الذى دمعت منه عيناه وطرف جليابه فى فمه يكتم صيحته .

ألح الأولاد عليها لتتركه يلعب معهم، ترددت ثم سمحت .

قالت لهم إنه أصغر منهم فلا يرهقه فى لعب عنيف .

وقالوا لها إن بينهم من هو أصغر منه .

كانوا يلعبون غير بعيد عنها، هى على العتبة لا تفارقها، ترد

على النسوة فى الحوش حين يسألنها عن شىء وعيناها على الأولاد، تلاحقهم صيحاتها حين يبتعدون أو ينطلقون فى جريهم تاركين ابنها وراءهم يحاول اللحاق بهم .

عندما يمرون أمامها تصفق له وتحنى كأنما لتمسك به، جسده السمين يترجرج داخل الجلباب، وخداه اشتدت حمرتها، تسحب من بينهم، تمسح عرق وجهه بطرحتها، وتدس شيئا فى فمه ثم تطلقه .

ابنها يفضل لعبة بعينها، يقترحها ضاربا الأرض بقدميه . لا ينتظر رد الأولاد، يأخذ وضع السجود، ويتأوب الأولاد القفز من فوقه، يميل بوجهه جانبا ينظر إلى فهيمة ويضحك، تنحنى تبادل النظرات والضحك، عندما حاول فى البداية أن يقوم بالقفز تعثرت قدماه فى جسد الولد الراقد وكاد يسقط على وجهه لولا أن أمسك به الأولاد .

الجد كامل كان مشغولا أيامها بحفر التربة، وقد خرج المجرى من زمام البلدة وأخذ منحنى واسعاً فى اتجاه الأراضى البور، ثم توقف الحفر مع قيام الثورة .

منذ بدأت أعمال الحفر والجد كامل يمضى إلى الموقع من يوم لآخر حاملا السكر والشاي وعلب المعسل، يقضى أمسيته مع الأنفار ويعود .

حين بلغه خبر التوقف أسرع إلى هناك، استقبله الأنفار ضاحكين، كانوا مستلقين على جانبي المجرى يمصون قصباً :

- قلنا إنك لابد ستأتى .

يحدق إلى جوف المجرى صامتا، ومياه قليلة فى القاع، وكتل الطين عالقة بالجانبين فى انتظار من يجرفها، الأنفاس تناثروا هنا وهناك، وأدواتهم ملقاة جانبا، والكراسة الضخمة ساكنة وسائقها راقد فى ظلها .

قال له مقاول الأنفجار إن الأوامر صدرت لهم بالتوقف، ولايدرى السبب، ينتظرون .

عاد يومها يكلم نفسه، يقول إنه لم يصدق يوما أنه سيزرع مائة فدان، كان يحس أن شيئا ما سيحدث ويوقف كل شىء، ساقاه ملطختان بالطين، كان قد سار قليلا فى المجرى ونسى أن يشطفهما، وجلبابه على كتفه . دخل الحارة ومر بالأولاد يلعبون، ثم التفت وعاد إليهم، توقف الأولاد عن اللعب وتراجعوا خطوتين، الجد شاكر راقد على ركبتيه وقد رفع مؤخرته قليلا وكان يهزها مرحا .

صرخت فهيمة مندفعة، أطاحت الركلة بالجد شاكر إلى الحائط المجاور، للم نفسه فزعا متحسسا وجهه، حين رأى الدم فى يده انفجر فى الصراخ . تسمرت فهيمة وقد رأت الوجه الدامى، استدارت إلى الجد كامل، فمنها المفتوح على آخره، وعواء ينطلق من حلقها، وذراعاها ممدودتان إليه، تقهقر الجد كامل خطوة، ارتمت عليه، وسعت يداها إلى وجهه، نفضها بعيدا عنه، سقطت وتعرت فخذهاها الهزيلتان، لونهما الأصفر الشاحب فى ضوء الشمس، رقمهما الجد كامل خطفا واتجه نحو باب البيت، لحظتها اندفعت النسوة من

الحوش على الصراخ، أخذ الجد كامل جانبا حتى خرجن ثم دخل شطف نفسه فى المراض، ولدى خروجه رأى الحوش مزدحما بالنسوة، أغلق على نفسه الحجرة ونام .

صحا فى العصر . البيت هادىء، والحوش نظيف، الحجرة الأخرى مغلقة، تردد لحظة ثم فتحها، كانت خالية، والسرير مرتب، تجول فى البيت باحثا عما يأكله .

سُحبت الكراكة من الموقع، اتخذت طريقا خارج البلدة رافعة زراعتها الضخمة، خلفها الأنفجار يحمل كل منهم هدمه فى ربطة على ظهره .

الجد كامل كان قاعدا على شط حوض نرة فى أرضه ينصت لضجة الكراكة تبتعد، مر به فى قعدته الحاج بيومى قادمنا من موقع الحفر .

- انت هنا . وأقول إنه لابد ذهب يسلم عليهم قبل أن يمشوا .
انظر ماذا وجدت .

أشار إلى كوريك كان أمامه على بردعة البغلة .

- كان مختفيا فى الطين . حاجة تفكرنا بهم .

الجد كامل يعبت بالحشائش على الشط، قدامه غائستان فى مياه القناة، ضحك فجأة، بادله الحاج بيومى الضحك . قال

- كان يجرى أيه لو الثورة انتظرت سنة ؟

رمى الجد كامل جلبابه إلى كتفه ونهض :

- خذنى معك .

سار بجوار البغلة، قال الحاج بيومى :

- ربما يعوبون . كل غربال جديد وله شدة .

غابت فهيمة شهرا عند أهلها وعادت فاقدة النطق، وأثر جرح فوق حاجب الجد شاكر لم يلتئم تماما، ولون أزرق حول عينه شوه جمال وجهه، حين يكون متربعا أمامها تتأمله وتدمع عيناها .

سرعان ما فهمت النسوة إشارات يديها واستقر الوضع فى الحوش، كانا يظلان بحجرتهما فى الصباح ينصتان لحركة الجد كامل عندما يصحو، يتناول فطوره المعد فوق الطبلية ويمضى، وحين يخيم السكون داخل البيت بخرجان، تأخذ فهيمة قعدتها على العتبة، ويلحق ابنها بالأولاد يلعبون لعبة القطار . وعندما يأتى الجد كامل فى غير مواعده يتوارى ابنها بحارة جانبية، وتختفى هى فى حجرتها .

الجد كامل فى أحزانه لا يبالي بهما، ويراهما يأخذان جانبا لدى مروره، ينظر إليهما صامتا ويمضى، كان بلغه أنهم سيردمون المجرى بعد شكاوى كثيرة من الأهالى إلى المسئولين بالمديرية، قالوا فى شكاويهم إن المجرى أصبح مقلبا للقاذورات ويقضى البعض فيه حاجتهم، وتأتى إليه الزواحف والثعالب، كانوا يمدون ألواحا من الخشب متجاورة ليعبروا المجرى، ولا تتحمل الألواح طويلا .

جاء أنفاز ذات صباح وبدأوا الردم من ناحية البلدة، واندفع الكثير من الأهالى يعاونونهم، الجد كامل يقف غير بعيد ينظر إليهم، المسئول الذى رافق الأنفاز يجلس على مقعد بفتحة خيمة يدخن الشيشة وأمامه أوراق على منضدة صغيرة، سار الجد كامل إليه ووقف جانبا، قال حين التفت المسئول إليه :

- تردمونها ؟

- كما ترى .

ظل الجد كامل واقفا، ولما التفت المسئول إليه مرة أخرى ابتعد .

كم من الشهور مرت ؟ ستة . سبعة . لا يدرى . الأيام تشبه بعضها، كان الردم قد توقف، والأنفاز رحلوا ذات صباح بعد أن ردموا مسافة كبيرة من المجرى، ولا خبر بعدها، حتى الحاج بيومى الذى كان يطمئنه بكلمتين من حين لآخر لم يعد يراه .

كان فى قعدته على شط حوض طماطم يتناول غداءه، طلب من النسوة فى الحوش إعداد رغيفين وغموس يأخذها لدى خروجه، وتجنب بذلك الرجوع للغداء، كان يعود فى الليل، وتكون النسوة غادرن، وفهيمة والجد شاكر راحا فى النوم، وعشاؤه على الطبلية ينتظره، كان يقصد عندما يطلب غموسا مع الرغيفين الجبن والمخلل، غير أنه دائما يجد نصف فرخة أو قطعتى لحم، وعرف أنها فهيمة، النسوة لا يقتربن من الزفر إلا بأمرها، ويقول إنها لم تقصر فى حقه أبدا، وما حدث قد حدث، وهى الآن لا تطيق أن تنظر فى وجهه، تهرب بعينها

بعيدا، هو أيضا لا يحتمل الاقتراب منها أو حتى يكلمها . يشعر
بصدها على بعد خطوات، كانت تحس به قبل أن تراه، يكون داخلا إلى
البيت، ويلمحها في نهاية الحوش وظهرها للباب، تتوقف حركتها،
جسدها مشدود يترقب، ورأسها يميل جانبا حتى تسمع حركته بأذنها
السليمة، لا تشير بيديها أبدا في وجوده، مجرد مأمأة خافتة تقلت
من حلقها عندما تريد ان تقول شيئا .

أفاق من شروده على ضجة يتردد صداها في الأفق كأنه قطار
مرق من جانبه . عاد إلى غذائه، واستمرت الضجة :

- معقول ؟ الكراكة ؟

قفز إلى حمارته تاركا الغداء، رمح بها إلى موقع الحفر .

يحكى الجد كامل لأبى عن اليوم الذى تدفقت فيه المياه إلى
الترعة .

- كان يوما غريبا من أوله . مع طلعة النهار وشيء يكتم على
صدرى . لا تعرف إن كانت الفرحة أو الانتظار الطويل . لم أكن
مستريحا . ما الخبر ؟ . لأعرف . قبلها بيومين بلغنى أن مسئولا كبيرا
سيأتى من المديرية ليفتح الهويس مندوبا عن الثورة . وقالوا إنه أول
مشروع يتم بمديريتنا فى عهدنا . قلت خير . وطلبوا أربعة عجول
تذبح فى المناسبة . أرسلتها لهم . أبوك شاكر كان عمره ست سنين .
وأنا خرجت .

لبس الجد كامل جلبابا من الصوف الخفيف، وشالا جديدا على
كتفيه . وقف لحظة ينظر إلى باب الحجرة الأخرى المغلق .
قال إنه يوم غير الأيام الأخرى . ربما لو صالحها ؟
فتح الباب ودخل . كانت راقدة فى السرير . استدارت وأعطته
ظورها، الجد شاكر ممدد بجوارها، استند إلى كوعه ورفع رأسه ينظر
إليه .

قال الجد كامل : " اليوم يفتحون الهويس "

ظل جسدها ساكنا . مأمأة خافتة، أصابع يدها الشاحبة على ردفها ارتعشت قليلا . همس الجد شاكر فى أذنها ثم عاد يتمدد جنبها ويخفى رأسه فى صدرها .

وقف الجد كامل بعض الوقت ينظر إليهما ثم خرج .

الزحام شديد عند الهويس، لمح الحاج بيومى بجانب المسئول ومعهما العمدة وأعيان البلد، أشار له الحاج أن يقترب، غير أنه ظل بعيدا خارج الزحام .

كانوا ينتظرون انتهاء الذبح فى المجرى أمام الهويس . عشرة عجول، حين علقت بفروع الأشجار لسليها تجمهر الناس حولها انتظارا لتوزيع اللحم، وخف الزحام عند الهويس .

اقترب الجد كامل قليلا، لا يدرى ما يقول أو يفعل، كانوا هناك يساعدون المسئول الذى مال على عجلة الهويس محاولا تحريكها . وتدفت المياه .

استداروا مغادرين . كانوا يحيطون بالمسئول يستمعون إلى ما يقوله . سار الجد كامل ورائهم، توقف عند مدخل البلدة، كانوا يبتعدون فى طريقهم إلى بيت العمدة .

فهيمة والجد شاكر كانا بلعيان وقتها داخل البيت، خطف منها شيئا وجرى، وهى جرت خلفه تحاول الإمساك به، يضحك متفاديا ذراعيها الممدودتين، تلمع عيناه السلم الخشبي مسندا إلى الجدار، تسلقه إلى السطح، التفت ورأها تصعد وراءه . يقفز فى مكانه صاحبا، ويركع ممسكا بطرف السلم يحاول أن يحركه وكأنما

ليفزها، مال السلم قليلا، توقفت عن الصعود، رفعت عينيها تنتظر إليه، وسقط بها السلم .

النسوة فى الحوش يحكين، وأهى تسمع :

- لو رأيت وجهها بعد أن حملناها إلى السرير . هادى، وصاف، تسبل عينيها وتفتحهما، تنظر إلينا واحدة . واحدة . وتطيل النظر . أهلها جاؤا حين أرسلنا إليهم . وخرج من يبحث عن زوجها كامل . يدها على بطنها . رفعت اصبعين، تشير لنا بهما وتحرك شفثيها . وفهمنا أنها تريد ابنها . بحثنا عنه ولم نجده . حين دخل زوجها أدارت وجهها للناحية الأخرى، وقبل أن يصل الطبيب ماتت .

أسأل أُمى : والجدة زينب . كيف عرفها جدى شاكِر ؟

قالت : جدك شاكِر لم يعرفها . ولا حتى شافها . هو جدك كامل . كم مرة حكى لنا أنا وأبيك كيف التقى بها . ما من مرة يا أبا كامل تحكى عن شىء إلا وتنسى نصفه . أما لقاءه بالجدة زينب فيذكر كل تفاصيله، حتى ما كانت تلبسه . أيامها كان جدك شاكِر يقيم عند أهل أمه، ويهرب من جدك كامل كلما رآه حتى لا يطلب منه ان يساعده فى الغيطان أو يعود به للإقامة فى البيت . وجدك كامل ولا على باله . لم يذهب أبدا إلى بيت أهل جدتك فهيمة ولا حتى سأل عن ابنه شاكِر . يعرف أنهم لن يرحبوا به . وكانوا عندما تأتى سيرته فى أى قعدة يشتمونه ويقولون كذا وكذا، والكلام يبلغ جدك كامل . المرة التى أخذ فيها جدك شاكِر إلى الغيطان كان فى العاشرة من عمره، والتقطه من أمام دكان بقالة وأركبه وراءه على الحمار . يقول جدك كامل إنه طول السكة وهو يبرطم، ما أن خرج الحمار إلى الخلاء حتى رمح قليلا، وجدك شاكِر يميل شمالا ويمينا، أمسكه جدك كامل قبل أن يقع ونقله أمامه، وجدك شاكِر بكى، شخط فيه جدك كامل . اسكت . وسكت . وراح ينهنه . المهم أنهما وصلا، وانشغل جدك كامل مع الأنفار، ورمى بصره شاف جدك شاكِر فى ظل جميزة يلعب بالحصى، المرة الثانية لمح يجرى بين الزرع ناحية البلد . وكانت المرة .

لم يحاول بعدها .

الأرض الجديدة مشوارها طويل، والشمس حامية في الصيف،
والطرقة شديدة في الشتاء، والحمار لم يعد يسعف جحك كامل . اشترى
الفرس، وأشياء لزوم الفرس، شمسية، وجزمة، وشراب، أه يا أبا كامل
القصد . يغيب أياما في الغيطان ويعود . قعدته في البلد عند صاحبه
الحاج عنتر صاحب محل القماش، أيامها لم يكن غيره في البلد، جحك
كامل يربط الفرس أمام المحل، يأخذ قعدته ويشرب شايه، القهوة لا
يشربها . ساعة زمن ويمشى .
ويوما كان في المحل ودخلت زينب .

أتوقف أمام لقائهما، أعود إليه المرة بعد الأخرى، أتخيل الجد
كامل بعد غيابه أياما عن البلدة، لا يتحمل ضجتها ولا زحامها،
يقتصر خروجه على صاحبه عنتر، يلحق ذقنه التي طالت وسط
الغيطان، ويسوى شاربه، ويستحم، وينتقى جلابيا لا يزال جديدا
ويخرج . أتذكر وجهه أيام الأعياد والمواسم بعد الحلاقة والاستحمام،
ويكون قاعدا بيننا، وأراني مستندا إلى كتفه أسأله لم لا يلحق ذقنه كل
يوم ؟

- ليه ؟

- عشان انت كده حلو .

الجدة زينب لم أرها، أمي أيضا، ما سمعته من النسوة في
الحوش وحكته لى، وما سمعته حين يتصادف وجودى بجوارهن، ما أن
تأتى سيرتها حتى يكثر كلامهن عن جمالها الذى لم يرين مثله،

وطيبتها، ونوبات الغضب التى تجتاحها ولا تظهرها أبدا . حاجات
كثيرة كانت تغضبها ولا تقول كلمة، ولا يبان عليها، يتغير لونها وفى
ثانية تعود كما كانت .

- ويا ست أم ياسر . نكون بنكلمها وعيناها فى عيوننا .
ويتهيا لنا أنها لا تسمع كلمة مما نقول . ومن كسوفنا لا نسالها .
رحمة عليها .
لا يشرن من قريب أو بعيد إلى الحاجات التى كانت تغضبها .
سلوك الجد شاكر مع البعض منهن وكن وقتها بنات كان يجرى
بعينا عن عينيها . ويثرن به ضاحكات، فى مرات يقلت منهن الكلام
العجائز اللانى عاصرن تلك الأيام، كان يقلن مثلا :

- وما أدراك انها لم تكن تسمع وترى ما يفعله معنا .

- ولا كان يبان عليها .

- صحيح . كذا مرة الواحدة منا كانت تعرف أنها رأت أو بلغها
ما فعله الحاج شاكر معها، من كسوفها تترك البيت، لا تعود إلا بعد أن
ترسل لها الست زينب، وأوقات كانت تذهب بنفسها لتأتى بها .

- فاكرة هانم ؟

- أه هانم . الله يرحمها .

أمي تنصت، تتظاهر بعدم الاهتمام، حذرة أن تعلق بكلمة
فيتوقف حديثهن، رغم ذلك ينتبهن فجأة، نظرة خاطفة يتبادلنها، أو
لمسة فى الركبة تسرى للأخريات، يتغير حديثهن بعيدا عن الجدّة زينب،
أمي تحاول أن تعود بالكلام إليها، محاولتها الحذرة مكشوفة لهن،

يتبادلن أثرها نظرة تحذير، أمى بعد فشلها تسأل دون لف أو دوران :

- وأيه حكاية هانم ؟

- ولا حكاية ولا حاجة . نفس هزاره معنا .

- وهانم ماذا فعلت ؟

- وماذا ستفعل ؟ مثلنا . هو الحاج شاكِر ونعرف هزاره .

هذا التكتّم حين كانت تأتى سيرة الجدة زينب لم أنتبه إليه إلا بعد سنوات . أستعيد قعداتهم فى الحوش، محاولا قراءة ما خفى .

الجد كامل لم يلتفت يوما إلى واحدة، هكذا حكين عنه، يجد نفسه ينظر مبهورا إلى زينب وهى تتهادى فى مشيتها إلى داخل المحل، الطرحة الخفيفة أمسكت طرفها بشفتيها حين أزاحها الهواء عن رأسها، شعرها الأسود الكثيف ملموم فى ضفيرة تصل إلى منتصف ظهرها، جلبابها واسع بلون الحناء .

- حتى الكحل فى عينيها رأيته يا أبا كامل .

تناول المقعد الذى رفعه عنتر من خلف " الكونتر"، وضعه لها غير بعيد عنه، عيناها شديدا السواد، رائقتان ابتسمتا له بمودة، كوب الشاي أمامه لم يقربه، يرمقها من فوق لتحت، وكأنما أحست بنظراته تورد وجهها وجذبت الطرحة لتغطى جانب وجهها من ناحيته، خجلها الذى جعله بشوشا، هو الذى لا يفهم فى القماش ولا ألوانه اقترح على عنتر أن يأتيها باتواب ثلاثة فى الركن البعيد من الرف العلوى . وقال عنتر دون أن يلتفت إلى ما أشار إليه :

- دى رجالى يا كامل .

سمع ضحكاتها الخافتة، وأحنت رأسها مخفية وجهها .

استقرت عيناه على أصابع يديها تتحسس القماش الذى فرده عنتر أمامها، ولح قدمها حين أخرجتها من الشيشب، قدم صغيرة وكعبها من غير قشف، حتى جوف الشيشب رآه نظيفا كأنما لم يدخله غبار .

أشارت بيدها نحو أتواب أخرى، صعد عنتر على مقعد وجاء بها . انتقت قطعتين قصهما عنتر ولقهما .

ظلت عينا الجد كامل عالقتين بها حتى خرجت . سأل عنتر عنها .
يقال عنتر :

- بنت الحاج مرسى .

تقول أمى : شوف النصيب . تخرج لتشتري قماش فى نفس اليوم يكون أبا كامل فى البلد وفى المحل ويراه . وتدخل دماغه وينوى يطلبها لجدك شاكِر .

استقر الجد كامل في البيت بعد زواج الجد شاكراً . يعود من الغيطان مع المغرب، يجد فرشته نظيفة، وملابسه مغلولة ومرتبّة، ولقمة ساخنة يتناولها، عادة ما تجلس معه الجدة زينب أثناء الأكل، يقول لها:

- مدى يدك.

- أكلت .

كان ذلك في الشهور الأولى من زواجها، وبعد ان اشتد خصامها مع الجد شاكراً صارت تتناول عشاها مع الجد كامل، ويكون الجد شاكراً في حجرته يستبدل ملابسه استعداداً لقضاء سهرته في الخارج، لم يغير شيئاً من عاداته بعد الزواج . كان يقول :

- لم تخلق بعد المرأة التي تغيرني .

في تلك الفترة - أيام زواجه الأولى - كان لا يزال متعلقاً بخاله "مسعود" . وكان يكبر الجد شاكراً بخمسة أعوام، يصحبه بحثاً عن الأفراح والموالد . ويقال إن الخال كان صاحب مزاج، يهوى الفناء ويجيد العزف على الأرغول، يمارسه في الخلاء بعيداً عن العيون، وكانا يسافران من حين لآخر إلى المنصورة حيث الكازينوهات والطرب، ثم حدثت القطيعة مع الخال،

وأصبحت للجد شاكِر سهراته الخاصة مستعينا بعمال من وابور الطحين، يقال إن وراء قطيعته مع الخال فضيحة صغيرة، أفشى الخال أسرارها فى قعدة له بمقهى بالبلدة، كانا قد ذهبنا مع امرأة يعرفها الخال إلى حجرتها فى المنصورة، وحين جاء دور الجد شاكِر سمع الخال وكان ينتظر على كنبه خارج الحجرة ضحك المرأة الصاحب وصياحها :

- مسعود . تعال ساعده يا مسعود .

صارت أغنية، ردها الكبار والصغار أياما ثم سكتوا . ويقال إن الخال حكى ما حكاه لأنه كان شايل فى نفسه من الجد شاكِر، فهو سبق له التقدم لزِينب ورفضه أهلها .

أتخيل الجدة زِينب كما وصفتها النسوة وقد جمعها البيت بالجد شاكِر، وربما بلغها شىء مما يحكى عنه فى البلدة، لا تميل كثيرا لمداعباته بما فيها من غلظة، وعادة ما تقتصر على مد يده ليغرف من استداراتها كلما مرت به، أو يتلصص عليها عندما تغير ملابسها، وربما بدا النفور عليها، وربما أيضا زجرته، لا يطيل بقاءه فى البيت، يتناول لقمته ويمضى، ويعود فى وقت متأخر، حتى وابور الطحين كان يتركه فى يد العمال حتى يصحو براحته .

ويوما، بعد زواجها بأسبوع ظهرت الجدة زِينب للبنات فى الحوش بوجه تكسوه الكدمات وشفتين وارمتين . تحاشت البنات النظر إليها حتى ابتعدت وتهامنن :

- الليلة كانت حامية . عض وقرص .

- ما يعمل ده غير الخائب .

بينهن اثنتان تزوجتا من عامين، قالت واحدة منهما :

- ولا عض . ولا قرص . ده ضرب .

- يا خير . يضربها ؟

وحين رأين الجد شاكِر بعد ساعة يمر بهن خارجا ولحن الخدوش بوجهه أيقن أنه كان الضرب . الجدة زِينب لاتشكو ولا تهدد بالعودة إلى بيت أهلها، ولاتحكى لأحد، حتى الجد كامل حين سألها عما بوجهها قالت :

- مفيش .

يتناول الجد شاكِر غداه وقت العصر، ويأخذ قيلولته، عادة ما تتواجد الجدة زِينب وسط البنات بالحوش فى هذا الوقت، وتمد يدها فى العمل معهن، يلمحن تحت الروب الذى تلبسه قمصان النوم زاهية الألوان، يتبادلن نظرة خاطفة تتسائل عن وجودها بينهن ؟ . ما يعرثنه أن العروسين فى أيام الزواج الأولى لا يفترقان، لاصقان دائما ببعضهما، أيام قليلة وتذهب زهوة الزواج ولا يبقى لهن غير وجع الدماغ .

يصحو الجد شاكِر من قيلولته، يغتسل ويشرب شايه، يمر بهن فى زيتته والعرط يفوح منه خارجا لسهرته، ويلمحن بطرف عيونهن الجدة زِينب فى قعدتها بينهن لم تغيرها، ولا التفتت نحوه، ما أن تفارقهن قليلا حتى يتهامنن :

- ده خصام .

- خصام ودلع .

- قال دلع قال . بعد كل ما سمعناه عن شاكِر .

الجد شاكر كان عاندا من سهرة، مسترخيا فى مقعده بالحنطور، ونسمة الليل طرية، وأصحابه فى مرح بعد تدخين أربعين حجر جوزة، كانوا يناوشونه :

- ويدك يا حاج . شفناها تدخل الفستان .

- ولم نرها تخرج ..

- يمكن لسه هناك .

وانفجروا صاحبين . الجد شاكر ابتسم مغمغما :

- أهى دى النسوان .

هم رغم عريدة الحشيش فى أدمغتهم التقطوا المعنى الخفى لكلامه، قال واحد منهم :

- يا حاج . معك زينة البلد .

الجد شاكر قال : أه يا سيدى . شوف انت وهو .

تربع على المقعد : سأقولها لكم حكمة . أنا عرفت من النسوان أشكال والأوان . المرأة امرأة غير ذلك أقول لك لا .

وألقي برأسه للوراء منهيها الكلام، ألحوا عليه قائلين أنهم غير فاهمين .

الجد شاكر تنحنح وقال :

- الواحدة مادام طلعت السرير يبقى خلاص . وحتى قبل ما

تطلع . وقت ما يقفل الباب عليهما . الواحد منا لا ينام مع رجل أو حائط . فيه حاجات كثيرة .

لا جديد فيما يقوله . سمعوه عشرات المرات، هذه المرة بخلاف ما سبق، وعرفوا إلى أين يرمى بكلامه، وتغامزوا بركبهم فيما بينهم .

تردد ما قاله عن الجدة زينب يومين أو ثلاثة فى البلدة ثم سكت، وبلغ فى سرياته أذان النسوة والبنات فى الحوش، تهامسن عندما رأينها تعد له الفطور على الصينية :

- حتى امرأته لم تسلم من لسانه .

- ولو كانت كما يقول معها حق .

- الواحدة مع واحد زيه لا بد تكون حجر .

- عيني عليك يا زينب وعلى بختك .

- أه . كانت تستحق أحسن من كده .

يرجع الجد شاكر من سهرته، الجدة زينب راحت فى النوم . هل كانت تصحو لدى مجيئه ؟ أم كان يوقظها عندما يرغبها ؟ . يهزها خفيفا من كتفها، وتراه يخلع جلبابه، تشمر القميص مستلقية على ظهرها، وجهها صامت، وعيناها ساكنتان يغلب عليهما النعاس، ما أن ينتهى حتى يرتدى جنبها لاهئا، هى فى رقدتها لم تغيرها . سرعان ما يستغرق فى النوم وفمه المفتوح يطلق شخيرا متقطعا . تلم ساقها وتخرج لتشطف نفسها .

بعد زواجها بشهر استبدلت الروب والقمصان الزاهية بجلباب

مشجر ومنديل رأس يلف شعرها .

- وبرضه حلوة وزى القمر .

ويعد شهر آخر بان الشحوب على وجهها وظلال خفيفة حول
عينها .

- حتى فى زعلها حلوة وحلوة .

يرونها بعد خروج الجد شاكر تعتكف فى الحجرة بالساعة
والساعتين، ثم تخرج لتقعد معهن صامئة مضمومة الساقين وخداها على
يدها .

ويوما عاد الجد شاكر بعد خروجه، ربما نسى شيئاً، ورأى بنتا
منهن ترتب الحجرة، كن وقتها لسبب ما يتجمعن فى حجرة أخرى
والحوش خال، ربما يجهن العجين للخبيز، ما أن شعرت به البنت حتى
اندفعت مذعورة تقصد باب الحجرة . حاصرها الجد ضاحكا .

- سبنى يا حاج أخلص شغلى .

- ما هو ده برضه شغل .

ضيق عليها حتى انزوت فى ركن الحجرة، صدرها الناهد تحميه
بذراعها، الذراع الأخرى متأهبة لصد، استطاعت يده أن تصل إلى
صدرها . تأوهت البنت من الألم، انحنت على نفسها، فقلت منها صرخة
ضعيفة، مد ذراعه ليحتويها، لمحت عيناه الجدة زينب بباب الحجرة،
أفلت البنت وضحك، سوى صدر جليابه وخرج .

- الكلمة العيب لا تخرج من فمها أبدا . انما يا ست أم ياسر
عليها بصة تفلق الحجر .

- دى كانت تفلق هانم ؟

- آه هانم .

تكورت هانم فى الركن مخفية وجهها وجسدها يرتعش بالبكاء
الخافت . مدت الجدة زينب يدها وأوقفتها :

- اغسلى وشك .

جليابها اتمزع عند الكتف، وبان لحم صدرها، غسلت وجهها .

- وشربنا كلنا الشاي . وهانم عينها فى الأرض . توشوشنا
انها مكسوفة من الست زينب . واحدة منا خاطت لها القطع . والست
زينب جاعتها بقطعة قماش من دولابها تفصلها جليابا . أيام يا
ست أم ياسر .

فى نفس اليوم، وقبل أن يعدن إلى بيوتهن أخلين الحجرة
الأخرى من كل الكراكيب، وكنسناها، ونقلن إليها الكنبه من حجرة الجد
شاكر، وصندوق ملاته الجدة زينب بما تحتاجه من ملابس .

- الحاج كامل حاول يصالح . والحاج شاكر ركب دماغه .

والست زينب قالت حتى لو حصل صلح لن تعود لحجرته أبدا .
وقد كان .

أسبوع والثانى ووقفت عربية كارو أمام باب البيت . عليها دولاب
وتسريحة وسرير بفرشته أرسلها الجد كامل .

الجد شاكر ولا على باله . وربما استراح لما جرى، لم يعجبه

أبدا أن يمد يده عليها من وقت لآخر، وكل مرة يضربها يظل
ساعات عكر المزاج ويعانى من أوجاع فى بطنه، هو بطبعه ينفر
من ضرب النساء، وقال ذلك كثيرا فى قعداته، وحين يتصادف مروره

فى حرارة ويرى واحدا يضرب امرأته يتوقف والأكم على وجهه،
وأحيانا يتدخل مهدئا الرجل .

الجدة زينب لا تريحه أبدا . مجرد وقفها تنتظر إليه تستفزه،
تعاليتها والرد عليه بكلمة أو كلمتين فى صوت خافت لا يسمع، وأوقات لا
تقول الكلمتين، تستدير وتمشى، تتركه واقفا يكلم نفسه، ودائما هو
الذى يسعى إليها، فى المرات الأولى قطعت نفسه حتى رضيت، وأحيانا
كان يمزق قميصها، وتستلقى أخيرا ساكنة، يحس بجسدها ميتا تحته.
وقالها يوما للجد كامل :

- قصر الكلام . لاهى من توبى ولا أنا من توبها .

لم تراوده فكرة الطلاق . سيصيبها ذلك بالكثير من الأذى، وهو
لا يكرهها، غير أنها لو طلبت الطلاق فلن يقول لا . لم يكن له فى
الزواج أصلا، واكتشف ذلك بعد زواجه بأيام، ولو ترك لشأنه ما سعى
إليه أبدا . هو أبوه كامل، وكان قصده خيرا .

شال الموضوع كله من دماغه، واستعاد بشاشته وكان عبئا ثقيلًا
أزيع عنه، لا شىء ينقصه، وأموره فى البيت تجرى كما كانت، تأتيه
واحدة من النسوة بصينية الفطور، وتأتيه أيضا بصينية الغداء، فرشته
نظيفة ومرتبّة، ملابس مغلولة ومطوية فى الدولاب، ويمر بهن فى
الحوش لدى خروجه، يتوقفن عن الكلام، لا يلمحها بينهن، لابد أنها فى
مكان ما تنتظر خروجه . ويضحك فى نفسه ويمضى .

حتى كانت مرة بعد القطيعة بشهر أو أكثر، عاد فجأة بعد

خروجه لسبب ما، وراها أمامه وسط الحوش، نظر إليها فى دهشة،
كان قد نسيها، وأراد أن يقول شيئا ولم يسعفه الكلام، وهى استدارت
إلى حجرتها .

تصحو الجدة زينب مبكرا، تعد الفطور على صينية وتنتظر،
أذنها على حجرة الجد كامل الجاورة، تعرف من حركته هناك أنه
انتهى من ارتداء ملابس، ودائما تجده بدون حذاء وكأنما ينتظر
مجيئها بالفطور، يتربع أمام الصينية :

- مدى يدك .

وتمد يدها .

بجوارها موقد سبرتو صغير فوقه براد الشاي، يسترخى الجد
كامل بعد الفطور وذراعه ممدودة فوق ركبته، يرمق الجدة زينب
مبتسما ويقول إنه لم يحظ بمثل هذه المعاملة من قبل. تبتسم الجدة
زينب وتتاوله كوب الشاي .

ويقول الجد كامل أنه طول عمره يلتقط ما ياكله وهو فى
الطريق، حبة طماطم، خيارة، شمامة، وأحيانا رغيفا وجبنا من
الفلاحين معه .

- آخر ما زهقوا منى عملوا حسابى فى الأكل .

الجدة زينب منحنية على الموقد تعد القهوة، هو لم يشربها فى
حياته غير أربع أو خمس مرات، ومنذ بدأت تأتيه بالفطور أخذ يعتادها،
تناول رشفة فى متعة . كانت ترقبه . قال :

- تسلم يدك .

وتمسك الجدة زينب بطرف جلبابه :

- لن تخرج حتى تقول لى .

يضحك الجد كامل : الأمر لله .

ويخبرها بالمكان الذى يقصده .

أحيانا تأتى النسوة مبكرا حين يكون هناك خبيز وغسيل، ويمر بهن الجد كامل تتبعه الجدة زينب، يتوقف قليلا يسأل عن أحوالهن، كان يعرفهن واحدة، واحدة، ويستدير ليخرج، تنفض الجدة زينب بأصابعها غبارا لمحتة على كتفه، النسوة يتبادلن بسمة خفيفة، عيونهن على الجدة زينب فى وقتها بالباب، ظهرها المشوق، عنقها النحيل، ضفيرة شعرها الأسود اللامع .

- كلها حلوة .

- حلوة وحلوة .

عدن إلى ما فى أيديهن من عمل، والجدة زينب أغلقت الباب . يقف الولد بالحصار خارج البيت . النسوة أعددن المقطف الذى ستأخذنه الجدة زينب معها، به حلتان وطبقان وملعقتان وأرغفة عيش طرى وخيار مخلل .

الجدة زينب بجلباب مشجر، تحكم الطرحة حول رأسها ورقبتها .

تقول للنسوة انها لن تغيب . ساعة زمن .

توقفها واحدة منهن، تبلل طرف طرحتها بلسانها وتمسح كحلا

سال جنب عينها، وتساعدنا على امتطاء الحمار .

فى قعدتها تحسب ما يحتاجه البيت من طلبات، تعدها على أصابع يدها، ويقول لها عندك المحفظة مشيرا إلى منضدة صغيرة، تفتح المحفظة وتسحب نقودا، تقول :

- أخذت كذا . ما كل هذه الأوراق ؟

- الله أعلم .

تفتح بعضها وتقرأ . تضحك :

- منصور أخذ كذا . وعبد الستار سدد . ظلمية ماء . ماسورة ..

- حاجات قديمة .

- ولم تحتفظ بها ؟

- من يدري . دائما يطلبون أوراقا .

- لم تخبرنى . طريقك اليوم .

- لن أخبرك . ولا تتعبى نفسك بالمجىء .

- ولا تعب ولا حاجة .

- مشوار عليك يا زينب .

- ولا مشوار ولا حاجة .

مستندة بظهرها لحلق الباب المفتوح، ويدها تتحسس ضفيرتها المسترخية على صدرها . ويأتيها صهيل الفرس وقد جاء بها ولد من الزريبة وربطها بشباك البيت فى الخارج . ويقول الجد كامل :

- أن الأوان .

- محشى ؟

- كنت تقول نفسك فيه .

- آه . من شهور . والله يا زينب بنت حلال .

بعد الجد كامل راكية نار خارج السقيفة ويأتى بأنوار الشاي .

استراحا فى قعدتهما بعد الشاي، تظللها بالخارج فروع شجرة توت، يستقبلان نسيمات العصارى ويعيونهما على أطراف الزرع المتمايلة .

ربما كان مشوارها من يوم لآخر بالغداء للجد كامل هو ما أثار فيما بعد القيل والقال عنهما .

فى شهرها الثالث من الحمل توقفت عن الذهاب، وكانت ترسل بنتا بالغداء، وربما هدأت بذلك شكوك الكثيرين . غير أن البذرة ظلت كامنة تنتظر الفرصة .

بلغ الهمس أذان النسوة فى الحوش، الجدة زينب كانت فى شهرها الأول أو الثانى، ربما لم تنتبه إلى حملها بعد . تتحرك فى خفة بينهن، التفقت إليها وكانت متربعة على حصير فى ضوء منور السلم، تسرح شعرها المغسول، ورذاذ ماء خفيف يتناثر منه . تهامسن :

- قطع لسانهم واحد . واحد .

- لم يجدوا غير المسكينة ليتكلموا عنها .

أخليها والمقطف أمامها والولد يهرول بجانبها، تخرج من حارة لحارة، وتمر بنسوة قاعدات على مصاطب البيوت، ورجال يجلسون على مقهى يطل على الطريق المؤدية للغيطان، ما أن يحتويها الزرع حتى تفك الطرحة وترتكها تنساب على كتفيها، شمس الظهيرة الحامية، ولا ظلال حولها، نسمة خفيفة تسرى بين الأحواض تحس بها تتسلل داخل جلبابها .

ويكون الجد كامل أخذ جولة واسعة بين الغيطان، لديه سقيفتان . واحدة فى الطرف الشرقى من أرضه الجديدة، والأخرى فى أرضه القديمة التى ورثها عن أبيه، قاد فرسه إليها .

السقيفة من أعواد الغاب وجريد النخل، أرضها مغطاة بعيدان الذرة الجافة، تطل على مجرى ماء، معلق بجوانبها من الداخل جلباب قديم وصديرى، وحبل غليظ، وقلة ماء ممثلة دائما ملفوفة بقطعة خيش مبنلة لتحفظ ببرودتها، وكيس من القماش به أدوات الشاي.

نهض مستقبلا الجدة زينب، أخذ منها المقطف وأعطاهما كتفه، استندت إليها ونزلت عن الحمار .

- وليه التعب يا زينب ؟

- أشم هوا يا أبا كامل . النسمة هنا حلوة .

تنزل إلى مجرى الماء، تشطف وجهها وتجففه بطرحتها، تترعب جنب المقطف :

- تأكل وهو ساخن .

الشتاء . توحد الشوارع والحواري سريعا، وتتجمع المياه وسطها، وتسيل من الأسطح على واجهات البيوت، يفرحون في البلدة بمجيئه، ويقف الكثيرون طويلا على المصاطب بمدخل بيوتهم يرقبون تدفق المطر وتسرح أفكارهم .

الجد شاكر لا يوقفه مطر أو حر، ينطلق في مواعده بعد قيلولته التي تستمر أحيانا ساعات . ينتبه لشدة المطر وهو بالباب قبل أن يخرج، يعود . يقلب في الدولاب حتى يعثر على الشمسية والعباءة، يفردا على كتفيه ويمدها لتغطي رأسه، ويرقع ذيل جلبابه بيده وهو يخوض في الوحل . عادة ما ينتظره الحنطور في مثل هذه الأيام على ناصية الحارة .

قليلا ما يخرج الجد كامل بعد عودته من الغيطان، اعتاد النوم مبكرا، يتناول عشاءه بعد الصلاة، ويتربع جنب فراشه مطرقا ويداه في حجره، وحين يحس بيوادر النعاس يصعد إلى السرير .

في الليالي الممطرة لا يستقر نومه، يغفو مع ايقاع المطر الرتيب، ويصحو في فترات انقطاعه مرهفا أذنه للأصوات في الخارج . كنت

أسمع فى حجرتى سعاله وغمغمته فى الليل وخطواته المتمهلة وهو يتجول فى الحوش .

يحتفظ تحت مخدته فى الشتاء بطاقيه صوف لم تكتمل وبكرة خيط من صوف الغنم وإبرة، لا أدري أين يخفيها بعد الشتاء، يسحبها فى فترات صحوه، تتعثر الإبرة أحيانا ويفك ما عمله من غرز ويبدأ من جديد .

يقول : لا بد أننى نسيت طريقتها .

ويسألنى : كم تظن عمرها ؟

- سألتنى مائة مرة .

- مائة ؟

- آه . كل مرة تسألنى .

- عمرها أكبر من عمر أبيك . جدتك زينب أتذكرها ؟

- لم أرها .

- كل ليلة أنسى طريقة عمل الغرزة . وتذكرنى .

ويصمت قليلا :

- تمسكها بأصبعين . وفى لحظة تعمل ثلاث وأربع غرز . من

سرعتها لا أرى سن الإبرة ولا أين تذهب . وكانت تضحك وتقول مرة ثانية . وثالثة . ورابعة .

ويصمت مرة أخرى :

- شتاء واحد قضته معنا . شتاء طويل . أظنهما اثنين .

شتاء . وشتاء . آه . بعد مجيء أبيك . الشتاء الثانى كان قصيرا . لا أتذكره .

أتخيله والمطر ينهمر، ينهى صلاته ويتربع فى قعدته منصتا لنقرات المطر على شباك حجرته، وتكون الجدة زينب التى عرفت مواعيده قد أعدت صينية العشاء، تدخل بها . الجد كامل يدفىء يديه على وهج جمرات فى وعاء فزار أمامه، يزيحه جانبا، يتأمل وجه الجدة زينب المبتسم وهى تنحنى بالصينية . تقعد جنبه :

- والشورية اللى بتحبها .

وترفع غطاء السلطانية، يتشمم الجد البخار المتصاعد .

- الله . الله .

- وفص الليمون .

- لاتنسى شيئا أبدا .

وربما قالت لتكسر الصمت بينهما أثناء الأكل :

- المطرة الليلة شديدة .

- آه . شكلها بيقول طول الليل .

- وطبعا الطاقيه تحت المخدة .

- آه .

- وطبعا نسيت تعمل الغرزة ازاي ؟

الجد كامل يضع وعاء النار بينهما، ويسحب من تحت السرير شيكارة أبو فروة التي يحبها، يرص الحبات فوق الجمرات، يقلبها من حين لآخر بظفره .

يتوقف المطر ويعم السكون، رذاذ خفيف هادئ . الجدة تسند ظهرها لحلق الباب، ساقاها ممدودتان، وقداها متعانقتان، والجد كامل يقشر حبات أبو فروة ويمد يده بها، يرشfan الشاي دون صوت، حمرة الدفء سرت في وجهيهما .

- ريك يسهل .
- حاتلبسها يا أبا كامل ؟
- بس تخلص .
- نفسى أشوفك بها .
- يعطيك طولة العمر .
- الجدة زينب انتهت من عشائها وانتظرت .
- أكلتك خفيفة يا زينب .
- أبدا . شبعت .
- يرمق الجد كامل كتفيها وكانتا ممثلتين قليلا ويبتسم .
- بتضحك على أيه يا أبا كامل ؟
- أبدا .
- هو ضرورى الواحدة تكون تخينة ؟
- أبدا .
- وخالتى فهيمة كانت تخينة ؟
- عود قصب .
- يسترخيان بعد العشاء . الجد كامل يتأمل لمعة الزفر بيديه، والجدة زينب تنصت لوقع المطر فى الخارج .
- ينهض الجد كامل ليغسل يديه، والجدة زينب تحمل الصينية وتخرج، تعود ومعها موقد السبرتو وأدوات الشاي .

الجددة زينب فى شهرها التاسع . عاد القيل والقال يسرى
همسا، واستمر حتى ولادتها . هؤلاء الذين رأوها عندما وقفت لحظات
بباب البيت تنظر هنا وهناك ويطننها بارز فى شدة تستند بيدها لإطار
الباب، البعض منهم لم يروها منذ شهر ينظرون فى عجب إلى
طننها، وربما أخذ الهمس طابعا ساخرا كالعادة حين يتعلق الأمر
بالجد شاكر :

- معقول هو ؟
- بعد كل ما يقال عنه ؟
- ومتى فعلها ؟
- صحيح . لا يقعد فى بيته خمس دقائق على بعضها
ربما ما جعل الهمس يأخذ هذا الطابع الحكاية التى تناقلوها عن
تلقى الجد شاكر للخبر .
- كان يجلس فى مقهى وداعبه واحد من القاعدين معه :
- ميروك يا شاكر . يتربى فى عرك .
- الجد شاكر له شهر لم ير الجدة زينب، ولا كانت على باله، نظر
فى دهشة إلى المتحدث، وقال آخر :

- سمعنا انها يومين أو ثلاثة وتقوم بالسلامة .

الجد شاكر ينقل نظراته من واحد لآخر دون أن يستوعب ما يقولانه، حذرا على ما يبدو أن تقلت منه كلمة وتأتى فى غير محلها .

- أه . والله . لورأيتموه . تلقى الخبر مثلنا تماما .

بلغ الهمس أذان النسوة فى الحوش . كن على غير العادة ساكتات . يعملن وعيونهن على ما فى أيديهن . من حين لآخر يختطفن نظرات إلى الجدة زينب . كن أعددن لها فرشتها فى مكانها المفضل عند منور السلم، تقعد وساقاها الممدودتان منفرجتان وظهرها للجدار، تتحرك يدها فوق بطنها . تلتفت نحوهن بابتسامتها الشاحبة، يبادلنها الابتسام . وتقول واحدة:

- بيتحرك ؟

تومىء لهن . بيتسمن مرة أخرى .

يسألنها إن كانت تريد إن تاكل أو تشرب شيئا ؟

تهز رأسها نغيا . بجوارها طبق به حبات من المشمش والبرقوق لم تلمسها .

ويسألنها بعد قليل إن كانت تعبت من القعدة وتريد أن تعود لحجرتها ؟

تهز رأسها نغيا .

فى قعدتها المسترخية ووجهها مائل جانبا، تسبل عينيها وتبدو كمن غفت .

- خذ بيدها يا رب .

- ويقولون ما قالوه .

- فضيها سيرة .

تسألهن إن كن أرسلن الغداء للجد كامل ؟

- أه . أخذته فائزة .

- وراحت ماشية ؟

- ماشية ازاي يا ست زينب . الاكل يبرد . الولد جاء بالحمار .

ابن حلال . لم يتأخر يوما .

تغمض عينيها وتسال عن نوع الاكل الذى أرسلنه .

- كل ما قلتيه عملناه . لا تشغلى بالك .

- والباذنجان المخلل ؟

- والباذنجان المخلل .

يوم ولادتها جاءت الداية مبكرا . دخلت حجرتها وواربت الباب،

وراحت تلقى أوامرها للنسوة فى الحوش . كن بلا عمل فى هذا اليوم،

لبسن جلابيب نظيفة زاهية الألوان، وتفرغن لإعداد ما يطلب من طعام

وشراب، الجد كامل أرسل قبلها بيوم الحلبة المطحونة والشربات

وكميات وافرة من اللحم والفاكهة .

تناول فطوره وقعد فى حجرتة متأهبا، ينادى على النسوة من

لحظة لأخرى ويسال عن الأخبار .

- خير يا حاج إن شاء الله .

الجد شاكر صحا فى غير موعده على الضجة . سأل المرأة التى
جاءته بالفطور وقالت له .

ارتدى ملابسه بعد تناول فطوره وخرج . كان فى طريقه لباب
البيت المفتوح على سعته حين سمع صوت الجد كامل وراءه :
- خارج ؟

النسوة فى الحوش توقفت حركتهن، ورحن ينظرن إليهما . الجد
شاكر استدار محدقا إلى الجد كامل وكان مقبلا من حجرته على مهل،
وتوقف على بعد خطوتين منه . تبادل الاثنان النظرات والصمت ثقيل
بينهما، وتقطبية خفيفة على جبين الجد شاكر الذى استدار وكأنما
سيواصل سيره إلى الباب ثم توقف مطرقا وازدادت تقطيبته، ومسر
بالجد كامل عائدا إلى حجرته .

قرب العصر خرج أبى إلى الدنيا . حجرة الجدة زينب ازدحمت
بنساء من أهلها، والنسوة اللائى يساعدن الجدة تجمعن فى الحجرة
الخالية وكان بها القليل من الخزين - أرز وسمن وعسل أسود - يعددن
الطعام والحلبة المطحونة، ورجال من عائلة الجدة زينب والجيران قعدوا
على الحصر فى الحوش حول صوانى الطعام - الفتة واللحم المسلوقة .

الجد شاكر يتقبل التهانى صامتا وعيناه فى صينية الطعام
أمامه، والجد كامل يوزع أكواب الشربات مبتسما .

وكان هناك من جاء من حجرة الجدة زينب يسأل عن اسم
المولود .

العيون اتجهت نحو الجد شاكر الذى ارتبك وطرقت عيناه .
غمغم :

- ما تختارونه .

قال الجد كامل : طه

- ونعم الاسم .

تقول أمى إن هناك من اقترح يومها اسم " زغلول " . ربما والد
جدتك زينب، غير أن اختيار الجد كامل كان حاسما .

هو يوم بليلة وعاد الجد شاكر إلى إيقاعه المعتاد . يعود فى وقت
متأخر ليستغرق فى نومه، يوقظه منه صراخ الطفل المتواصل، ومرات
صوت الجدة زينب تحاول أن تسكته، ومرات صوت الجد كامل يهدده
وهو يمشى به فى الحوش . يظل محدقا إلى باب حجرته المغلق منتبها
للأصوات خارجها حتى تسكت فيعود إلى نومه .

حين بلغ عمر أبى عاما ونصف أخذ يحبو متجولا فى الحوش،
يتسلق سيقان النسوة الممدودة ويرمى بنفسه فى حجورهن .

الجد شاكر يخرج بعد فطوره، لا ينظر ناحية النسوة فى
الحوش، يسرع فى خطوته باتجاه الباب، وربما كان أبى فى أيديهن أو
بين سيقانهن ولم ينتبه إليه . هو أيضا لم يدخل حجرة الجدة زينب
زائرا أو حتى ليلقى نظرة على المولود .

المرة الأولى التى رأى فيها أبى كانت عن بعد ومن خلف زجاج
نافذة المقهى .

الجد كامل اعتاد أن يأخذ أبى أمامه على الفرس ويتجول به
ساعة المغرب، ويخرج به يوم الجمعة صباحا وعصرا . وعاد القيل
والقال، وربما بلغ هذه المرة أذن الجدة زينب، كانت لا تخرج إلا

قليلًا من حجرتها . النسوة في الحوش يرقبن بابها المغلق وأيديهن في العمل :

- منهم لله .

- كسروا قلبها .

تقف الواحدة منهن أمام باب الحجرة تسألها عما يطبخنه للغداء، وغذاء الجد كامل، وتكلمها الجدة زينب من وراء الباب . أحيانا تواربه وتدفع بأبى من خلال فتحته، يحبو مرحا باتجاه النسوة .

ومرات تخرج به الجدة زينب لترضعه في شمس العصارى الخفيفة، تتربع في مكانها عند منور السلم، وجهها الشاحب الهادى، وشعرها الملموم في منديل، وعيناها باتجاه فتحة المنور، وربما كانت تتجنب النظر إليهن، أبى ممدد في حجرها، ترفع رأسه بذراعها لتقربه من ثديها .

ويوما كان الجد كامل يمر بفرسه في الشارع الكبير وأمامه أبى، الجد شاكِر في قعدته خلف نافذة المقهى يشرب قهوته قبل أن ينطلق إلى موقف الحنطور . لكزه واحد بجواره وأشار للخارج، ونظر الجد شاكِر، ورأى أبى يمسك بيده لجام الفرس ويهز قدمه، الجد كامل كان يكلم واحدا من معارفه، الجد شاكِر يحدق إلى وجه أبى حتى تحرك الفرس مبتعدا .

ربما في نفس الليلة انطلق إلى بيت أهل الجدة زينب، المرة الأولى التي يزورهم بعد زواجه، قعد مع أبيها وأمها في الحجرة،

رفض أن يشرب شينا، وقال إنه ينوى الطلاق وجاء ليخبرهم، ربما بلغهما ما يسرى من همس، استمعا إليه ساكتين . لم يناقشاه في شىء . وكل ما قاله الأب :

- اللى تشوفه يا ابنى .

وخرج الجد شاكِر قاصدا بيت المائون .

في نفس الليلة أيضا وقف الحنطور أمام بيت الجد كامل، خرج من حجرتة حين سمع صوت والد الجدة زينب الذى أخبره بما كان من لقائه بالجد شاكِر .

أنصت الجد كامل مطرقا ثم استدار ودخل حجرتة .

خرجت الجدة زينب ومعها أبى تحمل القليل من الأشياء أغلبها يخص أبى، ومضى بهم الحنطور .

اعتاد الجد كامل أن يذهب صبيحة كل يوم جمعة إلى بيت أهل الجدة زينب، يوقف الفرس على بعد خطوات ويرسل في طلب أبى . لا أحد من الكبار ينادى عليه أو يخرج إليه، والجد أيضا لم يطرُق الباب، الصمت يخيم على البيت، والجد فى وقفته ينتظر، يسمع صرير شيش شباك فى الدور الثانى، يلمح بطرف عينه موارديا، لا بد أنها الجدة زينب ترقب خروج ابنها . يحمله الجد كامل ويضعه أمامه وينطلق .

واحدة من النسوة فى الحوش أدبت على زيارة الجدة زينب، أحيانا يقال لها إنها نائمة فتعود، وأحيانا يدخلونها،

تحكى للأخريات أخبارها :

- لو شفتوها لن تعرفوها . خست كثيرا، وذبل وجهها . ولا
مرة شفتها مضفرة شعرها أو حتى سرحته . تلقاني وكأنها ستأخذني
بالحزن، ويعد شوية ولا كائى موجودة . وطول قعدتى معها وهى
راقدة فى الفرشة .

- سألت عنا ؟

- سألت . وبالاسم . تتوه منى فى رقدتها . أكون بكلمها فى
حاجة وأجدها تسأل عن واحدة منكن .

هى خمسة شهور بعد طلاقها وماتت .

يوقطنى الجد كامل من النوم . يفتح باب الوسط نون صوت
ويقصد حجرتى، يهزنى فى رفق، ألمحه واقفا فى الظلمة الخفيفة عند
رأسى، حين يرانى قعدت يشير لى ان أتبعه .

مصباح خافت الضوء بالصالة، ظلّه الطويل على الجدران وهو
يعبرها عائدا لحوش البيت القديم، حجرة أبى وأمى معتمة وبابها مغلق،
هما نائمان فى هذا الوقت، وأجده ينتظرنى فى الحوش، بلبس جلبابه
الصوف الجديد، آخر ما اشتراه له أبى، وحذاء، وعصاه فى يده
والشال الأبيض حول رقبته .

نخرج من باب البيت القديم، بصره الذى ضعف كثيرا . لا
يبصر فى الظلمة لأبعد من ثلاث خطوات وأحيانا يرى خيالات أو ظلالا
مقبلة نحوه فيتوقف متراجعا برأسه ثم يغمض عينيه قليلا ويواصل
السير، هو على ما يبدو لا يستعين كثيرا ببصره أثناء السير، كان
يحفظ الحوارى، يخبط بعصاه الجدار الممتد بجواره حتى ينتهى،
يمضى من حارة لحارة نون أن يسألنى، حتى المصاطب البارزة -
وكتت ألمحها بصعوبة فى العتمة - كان يتفادها عندما يقترب
منها .

احساس غامض ربما بسبب تحذير الجد كامل جعلنى أخفى

عنها .

قلت : أى مكان .

وأخبرتها بتحذير الجد حتى لاتحكى لأبى .

سألتها إن كان يجب أن أخبر أبى ؟

حدقت فى وجهى قليلا ثم قالت :

- ما دام جدك قال لا تخبره فلا تخبره .

ونمشى . الجد محنى الكتفين متكئا على عصاه، يتوقف قليلا

ليستريح وينظر حوله .

- لا شىء يبقى على حاله . كان هنا مخزن أسمنت . أترأه ؟

- لا أرى أى مخزن .

- ربما فى مكان آخر .

فمه الأردم مطبق محدقا فى البيوت أمامه :

- كان هنا . مخزن عيود . آه هنا .

ويواصل سيره .

نمشى على شط النهر، هو صامت يحدق للمياه تجرى، يهز

رأسه من حين لآخر، يبدو وكأنه نسينى، وأتوقف مختبرا ظنونى،

وأراه مستمرا فى مشيه . أقذف بما جمعته من حجارة إلى النهر

والحق به .

- غدا الجمعة . عندك إجازة .

- آه .

- قلت نمشى قليلا . أنت تحب المشى .

تدهشنى يقظته وانتباهه أثناء خروجنا، هو الذى يتوه عندما

يحكى الحوادث ويخلطها ببعض .

مشواره معى لا موعده له . وقد يمر شهر لا نخرج فيه، ثم نخرج

كل أسبوع أو أسبوعين، ومرة أيقظنى وسط الأسبوع، كان مقرفا

بجوار رأسى . همس :

- صحيت ؟

وهمس ويده على رأسى :

- بكره مدرسة .

وجهه المنكمش الحزين، ونبرة توسل خفيفة فى صوته :

- لو مشينا قليلا . لن نغيب .

فى كل مرة يحذرنى ونحن بالطريق :

- لا تخبر أباك . أخبرتة ؟

وأقول أننى لم أخبره .

هى أمى التى اكتشفت خروجنا، وسألتنى أين نذهب ؟

وقلت : نمشى

- أين ؟

ونصل إلى الهويس، يشير إليه بعصاه :

- حكيت لك عنه ؟

- أه حكيت .

- كله كان خلاء . لا ترى غير الشجر .

ينحنى فوق سياج الهويس محدقا إلى المجرى، يضحك :

- أه . ومن يتذكر الآن ؟

في عودتنا نأخذ الشارع الكبير الذى يخترق البلدة من منتصفها، يتوقف قليلا وسط الوسعاية، الوقت يقارب نص الليل والكل نائم، يشير بعصاه حوله منتشيا :

- هي هي لم تتغير . البيوت أكلت نصها . انما .. والمرتفع أيضا مازال مكانه . كنا نأتى إليه وأنا فى عمرك . ونتمدد فوقه حتى الفجر . ولا قطط ولا كلاب تصعد إليك . وحتى لو صعدت .

المرتفع صغير بطرف الوسعاية، بجواره بيت من طابقين، تصعد المرتفع وتقع، يمد الجد ساقيه مسترخيا، ويخلع حذاءه، ويفك الشال عن رقبته .

النهر على بعد قليل، أراه من خلال حارة مستقيمة، وهواء رطب يأتى إلينا . ممدد على جنبى متكئا على ذراعى أقاوم النعاس، وأنظر إلى بيوت البلدة المترامية ونوافذ قليلة مضيئة .

أسمعه يغمغم :

- البلد فى الليل غيرها فى النهار .

نفس الكلام يقوله كل مرة . والأسئلة أيضا

- أترى هذا البيت ؟

البيت قديم، جرى عليه الزمن، سقطت قشرته الخارجية وبانت حجارتها وتآكلت فى الركن المواجه لنا، شيش نافذة متهاك، مائل فى حدة، ربما خلع أحد مفاصله، مفتوح على سعته.

- هنا عاش أبوك سنوات صباه كلها .

يسكت مدلكا ساقيه :

- لم يكن أيامها قديما كان زينة المكان . كله أبيض . مصيص أبيض . وشبابيك خضراء، الشباك الأخير . أتراه ؟ حجرتهما . أبيك وجدتك زينب . لم تراها . أه قلت لى . أيامها كان هناك خمس شجرات ليمون أمام البيت، وأبوها الحاج مرسى يقعد بينها على كرسى جريد وأصحابه معه يدخلون الشيشة . استقبلنى أيضا بينها . قلت له إننى أطلب يد ابنتك زينب .

قال : لك ؟

قلت : لابنى شاكرك .

سكت وقتا وسألنى إن كنت أدخن الشيشة ؟

وقلت : لا أدخنها .

سكت وقتا آخر وسألنى : وشاكرك ؟ سيعمل معك ؟

وقلت : هو الآن معى .

قال : على خيرة الله .

كل مرة أحضر إليه . نتكلم . القعدة حلوة . والنسمة . وزهر
الليمون . أجمل رائحة فى الدنيا . وألمح الشباك فى الدور الثانى مواربا .
وهناك من ينظر . هى . قالت لى فيما بعد إنها هى . وكنت أحضر
لأخذ أباك على الفرس وهى خلف الشيش تنتظر ، ألمح ذراعها على
قاعدة الشباك . ويدها . أعرف يدها . والخاتم بالفص الأحمر .
وخصلة من شعرها نفدت من فتحة الشيش وطارت مع الهواء .
وتنتظرنا . طول الوقت تنتظرنا . أراها فى عودتنا خلف الشيش .
لا بد كانت قلقة على أبيك . أه . وتموت .
يغلبنى النعاس ، وأنتبه على سعلته . عصاه بين ساقيه ، يحفر
بطرفها عند قدميه . يبدو وكأنه لن يتحرك فى ليلته ، وأقول لأحثة على
القيام :

- الوقت تأخر . وربما صحا أبى .

يلم ساقيه ، ويستند إلى كتفى ونمشى عاندين .

فى مقعدى خلف المكتب . أعود لأوراق العائلة فى الظرف
المهترىء . لم تعد تضيف شيئا لا أعرفه . لكنها تضعنى وسط الأحداث
القديمة ، وجوه تظهر وتختفى ، أكثرها وجوه نسوة فى الحوش ، ما
عدت أتذكر أسماءهن ، وجوه رأيتها بعد ذلك فى شيخوختها
وسمعت بموتها ، أمى كانت بصحتها تذهب وتأتى فرحة بكل ما حولها ،
تقعد مع النسوة قليلا ثم تتذكر شيئا يجب أن تعمله قبل عودة أبى التى
اقتربت . تنهض فجأة :

- يا خير . ونسيت .

لا تقول ما نسيت . تغيب وقتا فى البيت الثانى وتعود .

- كنا بنقول أيه ؟

فى الصباح الباكر تصحبنى وأخى للباب وشال يغطى كتفيها
شبه العاريتين ، تسوى ملابسنا المدرسية قبل أن ننتقل إلى الخارج .
عادة أنظر ورائى قبل أن ندخل شارعا آخر ، وأجدها واقفة بالباب تضم
بيدها جانبي الشال على صدرها ، وستعود بعدها لتستلقى بجوار أبى
الذى يتأخر قليلا فى النوم .

أتذكره وهو يتحرك بون صوت فى البيت ، مناديا أمى فى همس

حتى لا يزعج أحدا . ينحني مقبلا يد جدى كامل أو خده أو كتفه مبتسما له فى مودة، وحين يلتقى بالجد شاكر يقف على بعد خطوة منه خافضا بصره مستمعا فى صمت إلى ما يقوله . أعود إلى محاولاته الشعرية التى كتبها لأمى منكفئا فى الليل بعد أن ينام الجميع . هو نفس المكتب . ومصباح خافت الضوء . جسده الليل ، وعظام كتفيه البارزة . أتسلل أحيانا . باب حجرته الموارب، ألمح شارد النظرات والقلم فى يده يجرب كتابة الكلمات فى الفراغ ويتأملها قليلا قبل أن يخطها على الورق . أشعاره الحزينة . أتخيله فى صباه مبتعدا عن الآخرين وألعابهم، متجنبيا الشجار، مصطفىا واحدا أو اثنين يمشون ساعة العصر على شط النهر، يتهامسون ويضحكون دون صوت، ويقعدون فى ظلال الأشجار ينظرون إلى مياه النهر ولا ينزلون إليها .

تقول أمى إنها كانت تصحو فى الليل على بكائه الخافت وتجده نائما، تأخذ رأسه إلى صدرها وتهدهه قليلا، يسكت بكاؤه، وتنظم أنفاسه .

أسأل أمى . كانت فى غرفتها، قليلا ما تغادرها، لم يعد يأتى من النسوة غير امرأة وبناتها، أعمال البيت قليلة، تنتهيان منها فى ساعة أو ساعتين . وصرنا نأتى بالعيش من المخبز، فلا حاجة للفرن أو الخبيز، تقضى أمى وقتا طويلا فى الصلاة، وطرحه بيضاء تلف رأسها وكتفها .

- تسألنى إن كان يتذكرها ؟ عمره كان عامين وثلاثة شهور

حين فارقته . سألته مرة . قال كل ما يذكره رائحتها . اللبن الرائب . ربما لم تطفمه . هو نفسه كان يسألنى عنها . يظل شهورا لا يذكرها بكلمة . ثم يسألنى يوما بعد يوم . ولا يحلو له السؤال إلا قبل نومه وكنت أظنه راح فى النوم . ويأتى صوته :

- النسوان فى الحوش . أتذكرين ما قلته عنها .

نفس السؤال كل مرة . وأقول :

- قلن إنها كانت جميلة .

- آه سمعت . وغير ذلك ؟

- غير ذلك . يذكرنا دائما بالخير . ويترحمن على أيامها .

جاءوا به يوما فى عربة وقفت أمام البيت . كان فى اجتماع مجلس المدينة وسقط مغشيا عليه . أفاق . وأرادوا الذهاب به إلى المستشفى . رفض :

- خذونى إلى البيت .

حاولوا معه مرة أخرى . ولا يقول غيرها :

- خذونى إلى البيت .

كان ممددا فى الفراش بحجرته، يحدق طويلا فى وجوه من يدخلون عليه . لم يخطر لأحد أن يأتى بطبيب . أمى بعيدة فى الصلاة . كلما اقتربت أبعدها، وجهها الذاهل، وعيناها الفرعتان، جدى كامل وجدى شاكر يجلسان على مقعدين بجوار الفراش . الجد كامل صامت يحدق فى أصابع يديه المفرودة ويتحسس الجلد المجعد عند مفاصلها، والجد شاكر مرتعش الفم وعيناه مبلبلتان، يوشك أن ينفجر

أحدث إصدارات روايات الهلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنيه
٦٤٥	صهاريج اللؤلؤ	خيرى شلى	سبتمبر ٢٠٠٢	٧,٠٠
٦٤٦	حلم ليلة أفريقية	سبريان إكوبنسى	أكتوبر ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٧	ليلة عرس	يوسف أبو ريه	نوفمبر ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٨	رجل أبه امرأة تافهة	محمد ناجى	ديسمبر ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٩	ريحانة	ميسون صقر	يناير ٢٠٠٣	٧,٠٠
٦٥٠	اغتيال	أميلى نوتومب	فبراير ٢٠٠٣	٥,٠٠
٦٥١	كاننات محتلة	محمد عزالدين التازى	مارس ٢٠٠٣	٥,٠٠
٦٥٢	سواقى الوقت	سلوى بكر	أبريل ٢٠٠٣	٥,٠٠
٦٥٣	ما ذكره رواة الأخبار	محمد جبريل	مايو ٢٠٠٣	٧,٠٠
٦٥٤	الدار الكبيرة	محمد ديب	يونيه ٢٠٠٣	٨,٠٠
٦٥٥	النول	محمد ديب	يوليه ٢٠٠٣	٦,٠٠
٦٥٦	خيال الظل	جورج سيمينون	أغسطس ٢٠٠٣	٥٠٠

فى البكاء، ينهض فجأة مغادرا .

تخلو الحجرة أخيرا . تدخل أمى . هما هناك وحدهما والباب موارب . لا صوت يأتى من الداخل، بعدها تخرج أمى لتلبس الأسود .



وكانى أسمع الجد كامل بحجرته يغمغم فى الليل :
- أخذته . ما كانت لتتركه طويلا معنا .
أغلقُ الظرف المهترى، وأعيده إلى درج المكتب .

رقم الايداع: ١٤٠٣٦ / ٢٠٠٣

I.S.B.N

977- 07 - 1002 - 4

روايات الهلال تقدم

شارع مصنع النسيج

بقلم

صفوت عبدالمجيد

تصدر: ١٥ أكتوبر ٢٠٠٣

هذه الرواية

أوراق العائلة رواية أخرى لمحمد البساطى حيث المنطقة الوسطى بين الضوء والعتمة ، بين الإفصاح والصمت ، إنها رقة عالم ترسمه الإيماءات لا الكلمات ، إيماءات الصبى المشاغب المختبىء دوماً فى مكان ما خلف روايات البساطى .

وإذا كان الصبى قد عاد فى رواية «ويأتى القطار» ليحكى عن عالم الآباء فإنه فى «أوراق العائلة» ينبش فى روحه أعمق ليحكى عن ثلاثة أجيال من الرجال ، الجد الكبير ، الجد الصغير ، والأب ، وبين الثلاثة عمود الخيمة «الجددة زينب» حيث بهاء الأثونة المكتملة المتروكة لوحشتها .

إنه مقترح جديد لرواية أجيال يقدمه كاتب لا يكتف عن الاقتراحات ، ففى هذه الصفحات تتعاشق المصائر وتختلط الرغبات وتمتد حالة الشجن التى تلف الشخصيات لتشمل القارئ المتعطر ، لكن الصبى الراوى المشاغب يعرف متى يكف عن الكلام المباح .



محمد البساطى

- ولد ببلدة الجمالية المطلة على بحيرة المنزلة .
- حاصل على بكالوريوس تجارة وعمل بالجهاز المركزى للحاسبات .
من مجموعاته القصصية «الكبار والصغار» عام ١٩٦٨ ، «حديث من الطابق الثالث» عام ١٩٧٠ ، «أحلام رجال قصار العمر» ١٩٧٩ ، «هذا ما كان» ١٩٨٧ ، «متحنى النهر» ١٩٩٠ ، «ضوء ضعيف لا يكشفنا شيئاً» ١٩٩٣ ، «ساعة مغرب» ١٩٩٦ ، «الشرطى يلهو قليلاً» ٢٠٠٢ .

- له تسع روايات وهى :
«التاجر والنقاش» ١٩٧٦ ،
«المقهى الزجاجي» ١٩٧٨ ،
«الأيام الصعبة» ١٩٧٨ ،
«بيوت وراء الأشجار» ١٩٩٣ ،
«صخب البحيرة» ١٩٩٤ ،
«أصوات الليل» ١٩٩٨ ،
«ويأتى القطار» ١٩٩٩ ،
«ليال أخرى» ٢٠٠٠ ،
«فردوس» ٢٠٠٢ .

- ترجمت أعماله إلى اللغات الفرنسية والانجليزية والإيطالية والأسبانية .